حكايات جولانيّة

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

زكريا مقبل

حكايات جولانيّة

قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

(التعريف بمدينة فيق)

أحببتُ قبل بدء الكتابة في فصول هذه القصة أن أعرِّف القارئ الكريم إلى مدينة فيق تعريفاً موجزاً، كي يكون لديه فكرة وتصوّر عن هذه المدينة وحياة سكانها وطبيعتها الجميلة، وعن العادات والتقاليد الأصيلة التي كانت تسود فيها، وإني لأسميها دائماً بـ **(فيق الحبيبة)** لشدة ما أحمل بين جوارحي من تعلُّق بها وحنين إليها.

يتبع لمدينة فيق ناحيتان: هما **(البطيحة)** وناحية الشجرة في حوض وادي اليرموك، التي فُصلت عنها بعد عدوان ١٩٦٧م وضُمَّت إلى مدينة نوى التابعة بدورها لمحافظة درعا.

مدينة فيق مدينة قديمة قِدَم الإنسان والتاريخ، وهي موجودة جغرافيّاً من قبل أيام الرومان والأنباط، وقد قرأت عنها في الكتاب المقدّس، إذ كانت تسمّى **(أفيق)**، إنها قرية كبيرة بمنزلة مدينة، وكان فيها كل متطلبات الحياة قبل أن يحتلَّها الصهاينة الأشرار، إذ كان فيها آنذاك مبانٍ قديمة جدرانها مبنية من الحجر الأسود، ذات أسقف طينية من الخشب والقصب والتراب، كما كان يوجد فيها مبانٍ حديثة مشيَّدة من الحجر الأسود أو من حجر البناء **(البلوك)** أو من كليهما معاً، بحيث يكون الحجر الأسود حائطاً خارجياً وتكون التقسيمات من الداخل من حجر البناء ولها أسقف من الحديد والإسمنت.

مدينة فيق إداريّاً هي مركز منطقة فيق، وتوجد فيها إدارة المنطقة ومحكمة وسجن مركزي ومخفر للشرطة الذين كانوا يستعملون الخيل في تسيير شؤون عملهم من نقلٍ للسجناء والبريد والمعلومات والتبليغات بينهم وبين القرى والنواحي الأخرى التابعة إداريّاً لمنطقة فيق، كما كان فيها إدارة مالية ومصرف زراعي ومستوصف حكومي وصيدلية ومركز بريد ونادٍ للضباط وسوق رئيسة طويلة؛ يصل طولها من البريد إلى منطقة السرايا/نادي الضباط نحو كيلو مترٍ ونصف، وكان فيها بلدية يعمل فيها عامل نظافة يُدعى (أبو شوكة) الذي كان يجمع القمامة في (طنبر) يجرُّه حمار، كما أن فيها مركز جباية للضرائب وفواتير الماء وإدارة للأحوال المدنية (نفوس)، ومُفْتٍ ومدرسة خاصة (معهد خاص) وإدارة مالية، وكان يوجد فيها مخبزان ومحلّان للحدادة، لصنع ما يلزم المدينة والقرى التي حولها والتابعة لها من أدوات الزراعة من مثل الفأس والمنجل وسكة الحراثة والبلطات وغيرها.

وكانت هناك مساكن للضباط على شفا وادي الزيتون شمال البلدة من جهة الغرب، وإلى الشرق منها مساكن لصف الضباط والعساكر المتطوِّعين.

تلفُّ مدينة فيق بساتين وكروم مزروعة بالزيتون من كل الجهات، ولو أَنَّكَ قَدِمتَ إلى مدينة فيق من أي جهة فإنك لن تراها من بُعد، إذ لا يبدو منها سوى مئذنة المسجد وخزّان الماء، فلا يبدو لكَ لكثرة ما يحيط بها من بساتين سوى أشجار الزيتون، ولن تستطيع رؤية تفاصيلها إلا إذا اقتربتَ منها كثيراً، فدخلتَ إلى تلك الكروم والبساتين.

الأراضي حول فيق تربتها متنوعة، ولكنها جميعها خصبة جداً، والأمطار فيها جيدة، ومدينة فيق يعمل سكانها جميعهم تقريباً في الزراعة،

وكل الزراعة فيها بَعْلِيَّة، ماعدا الأودية، فالزيتون فيها مرويّ بسبب توافر الماء وكثرة العيون والينابيع.

يتألف معظم السكان في مدينة فيق من عدة عائلات أو عشائر ومن أشهرها عشيرة (الذيابات) وشيخها أو وجيهها هو (موسى المقبل الإبراهيم القبلان)، وينتهي نسبها إلى (عدنان)، فهي من القبائل العدنانية، وعشيرة (الحجايرة) ووجيهها (شهاب الحمد) وهي عشيرة لها امتدادات واسعة لا مجال لذكرها هنا، ومن عشائر فيق كذلك القراعطة والصبابحة والجُمْعات وبعض العائلات والبيوتات الصغيرة التي ليست من سكان فيق القدماء، بل وفد أبناؤها إليها في أزمنة مختلفة.

أيضاً كانت تعيش في مدينة فيق بعض العائلات الفلسطينية التي نزحت إليها من فلسطين إثر نكبة ١٩٤٨م، كما كان فيها ثلاث أو أربع عائلات من إخواننا من العائلات المسيحية مثل عائلة أنطون.

كانت كل هذه العشائر والعائلات تعيش معاً في ودٍّ وإخاء وتسامح ووفاق تامّ وتعاون واحترام لم أرَ نظيراً له في أي مكان آخر، إذ كانت الأعراف والتقاليد المتّبعة تربط بينهم جميعاً، فكانت تسُود بينهم المحبة والأمانة وعلاقات حسن الجوار.

مدينة فيق مركزٌ لمنطقة فيق، فيها المدارس والأطباء والصيدلية ومحلّات التسوق والمستوصف الحكومي، وبسبب عدم وجود مدارس إعدادية وثانوية في القرى المحيطة بها، كان كثير من الطلاب يسكنون فيها من أجل متابعة دراستهم الإعدادية أو الثانوية، وكان في فيق معهد

خاص لمتابعة الدراسة لـمَن ينجح في شهادة المرحلة الابتدائية ولا يُقبل في المرحلة الإعدادية، فيتابع دراسته في (معهد فيق) لصاحبه الأستاذ (حسن الفاعوري)، إضافة إلى ذلك كان يسكن بين ظهراني أهلها كثير من عائلات العسكريين، لأن مدينة فيق هي منطقة حدودية وحولها مواقع عسكرية كثيرة، لذلك آثر بعض العسكريين أن يسكن وعائلته فيها لوجود الخدمات، ولا سيما مدارس البنين والبنات.

كما كان يوجد في مدينة فيق مركز انطلاق للحافلات والسيارات (كراج)، من فيق إلى منطقة (الحمّة) مروراً بكفر حارب، ومن فيق إلى مدينة القنيطرة وإلى كل القرى المجاورة لها، إذ إن أغلبها تصلها بمدينة فيق طرق معبَّدة تعبيداً جيداً.

كانت قرية (الحِمَّة) التابعة لمدينة فيق مركزاً للاصطياف والاستشفاء لوجود عدة ينابيع كبريتية فيها، ولأنها أخفض من مستوى سطح البحر فقد كانت تتمتَّع بجوٍّ دافئ في فصل لشتاء.

تجمع مدينة فيق بين خصائص الريف ومَزِيّات المدينة، إذ يعمل معظم سكانها في الزراعة، ولا سيما زراعة القمح والشعير والسمسم والذرة البيضاء والحمص والعدس وحبَّة البركة وغيرها، كما كان السكان في مدينة فيق يربّون الماشية، ولا سيما الأغنام والأبقار بأعداد كبيرة، كما كانوا يربّون الأرانب والدواجن والحمام.

كانت تلك لمحة موجزة وبسيطة جداً عن بلدتي فيق التي احتلَّها الصهاينة عام ١٩٦٧م إثر عدوان الخامس من حزيران الذي كان عدواناً

من العصابات الصهيونية ومن يساندها من الدول المجرمة على الأمة العربية كلها.

لقد آثرتُ كتابة هذه القصص بفصولها لتكون وثيقة للأجيال التي لم تعرف (فيق)، إذ إنها وُلدت بعد نكسة حزيران، ذلك التاريخ المشؤوم والمؤلم في آن معاً، كما أنني أردت من سرد هذه القصص أن تكون ذكرى لمن وُلد وعاش فيها كي لا ينساها أيٌّ منهم، كما أنني أردت أن أذكِّر أبناء الشعب العربي السوري الذين أعتزُّ بأنني إليهم أنتمي وبأنني واحد منهم، بأن الجولان كله عربي سوري، وعليهم عدم نسيانه، وقد أردتُ أن أبثَّ فيهم روح الإباء والنخوة للعمل على استرجاعه من أيدي الصهاينة وإعادته إلى حضن الوطن، وأقول يا إخوتي السوريين الأعزاء: إن الصهاينة يراهنون

على عامل الزمن فيقولون: "الكبار يموتون والصغار ينسون"، كي يبتلعوا جولاننا الحبيب ودرَّته مدينة فيق الحبيبة.

حينما احتل الصهاينة الجولان ومدينة فيق كنت في المرحلة الابتدائية، لكنني لم أنسَ ما عشته فيها من أنماط الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد والجمال الأخّاذ، ولذلك أخي القارئ الكريم سأصف لك جمال تلك الحياة التي عشتها وبساطتها وروعتها حينذاك، وإنني لا أنفكُّ أذكُرها لنفسي ولأولادي ولأحفادي ولكلِّ محبٍّ في كل حين، ومن ثم آثرتُ أن يكون كل ذلك مكتوباً حتى لا يضيع إذا دنا الأجل.

(أبي والطَّحْنَة أو إحضارُ الطَّحْنَة)

جاء فصل الصيف وحان وقت الحصاد، وكان أول ما يحصده الفلاح هو (الكَرْسَنَّة) و(البيقياء)/ الجلبانة والعدس والحمص وحبّة البركة والشعير.

كنت، وأنا ما أزال طفلاً صغيراً، برفقة أخي (أمين مقبل)/ أبو شادي مع أبينا - رحمهما الله، نحصد الجلبانة في قطعة أرض لنا تسمّى (السَّمَاحِيَّة)، وهي تقع إلى الشرق من بلدتنا (فيق)، على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات، قريباً جداً من قرية (العال)، أي أقرب ما يكون إلى (رُجْم العال)، وهو موقع أثري قديم، وأرض (السَّماحيَّة) خصبة جداً، تعيش فيها الأرانب البرية بكثرة، وكنت ألاحق صغار هذه الأرانب البرية وأمسك بها، بعد أن أكون قد بنيت لها مسبقاً خُمّاً صغيراً، فأضعها فيه، وأجعل سقف ذلك الخُمّ نبتةَ شوكٍ كبيرة، ريثما يكون أبي قد حمَّل ما حصده ووضعه على الحصان، فيقول لي: هيّا بُنيَّ إلى البيدر ولا تتلهّى. اذهب وارجع بسرعة. فكنت أركب فوق الحِمْل على ظهر الحمار وأمسك رَسَنَ الحصان كي أقوده خلفي وأذهب إلى البيدر وأعود بسرعة لأتفقَّد الأرانب الصغيرة، فلا أجدها، إذ تكون أمها قد جاءت إليها في غيابي حين ذهابي إلى البيدر، فهدمتْ الخُمَّ الصغير وأخرجتْها منه وهربتْ معها، فكنت أعاود البحث عن أرانبَ صغيرة أخرى، فأجد عدداً منها، فأفعل بها كما فعلت في المرة الأولى، ثم أذهب إلى البيدر ومعي الحمار والحصان وأفرغ حمولتيهما في البيدر، وما إن أصل حتى أذهب لتفقُّد الأرانب

الصغيرة فلا أجدها، فيحدث لي ما حدث في المرة الأولى، وهكذا دواليك... إلى أن ننتهي من حصاد أرض (السماحية)، وكنت كلما فقدتُ الأرانب الصغيرة أشعر بالحزن وأحسُّ بالفشل والامتعاض، وحينما يراني أبي على هذه الحال يقول لي: يا بنيّ، لا تحزن، إنها أرانب برية، لا تعيش عندنا في دُورنا، ولسوف تحاول الهرب بسرعة في كل مرة تحاول فيها أن تمسكها، كما أنها أرانبُ برية بحاجة إلى أمها كي ترضعها، فلا تحزن بُنيّ، فلدينا كثير من الأرانب في دارنا.

كانت أرض (السماحية) تعطينا غلالاً وفيرة من أي شيء نزرعه فيها، وفي آخر يوم من أيام حصاد أرض (السماحية)، وكان ذلك في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ وعند آخر نقلة أنقلها من محصول الجلبانة إلى البيدر لاحظتُ شيئاً غير معهود هو أن الثكنات العسكرية بدت لي وكأنها قد خلت من العسكر، فلا حركة فيها، حتى إن السيارات التي تكون عادة تحت ظل الأشجار، وملابسهم التي كانوا يغسلونها وينشرونها على الحبال وبطّانياتهم التي كانوا ينشرونها تحت أشعة الشمس، كلها غير موجودة.

فصرت أراقب كل المواقع التي على طريقي في أثناء ذهابي إلى البيدر وفعلت ذلك في طريق العودة فلم أرَ أي حركة فيها. رأيت جندياً واحداً يخرج من الغرفة المبنية للحماية والمراقبة ذات الشكل القُبَبيّ (البلوكوس) ثم يعود بسرعة البرق إليها، وقد سمعت وأنا عائد إلى مكان وجود أبي أصواتاً للطيران وكان هذا أكثر شيء يخيفني.

وحينما وصلت إلى أبي وجدته يضع يده على خدِّه متَّكِئاً عليها، وهو نائم، وكذلك أخي الأصغر نائم أيضاً، فلم يشعروا بقدومي وبحركتَي الحمار والحصان.

فأردت أن أوقظ أبي فاستفاق مندهشاً مستغرباً، فقلت له ماذا هناك يا أبي؟ قال لي: لا شيء. ولكني غفوت قليلاً فراودني حلم مخيف. قلت له ما هو يا أبي: قال: لقد رأيت في الحلم الآن أن الجنود الصهاينة يتجولون داخل البلدة، ثم قام وحمل كلًّا من الحمار والحصان وأخذنا طريقنا إلى البيدر. في الطريق قلت له: انظر إلى هذه الثكنة كأنه لا يوجد أحد فيها وكذلك تلك، وكنا نسمع في أثناء عودتنا أصوات الطيران تعلو أكثر فأكثر.

وصلنا إلى البيدر، ورمينا بالأحمال فركبتُ أنا على الحصان وركب أبي وأخي على الحمار، وحينما وصلنا إلى أول البيوت في البلدة كانت تبدو وكأنها خالية من سكانها، وبالقرب من بيت عمي (أبو رشاد) كان هناك عدد من الرجال كلُّهم من أقاربنا وكان معهم عمي الأصغر (عبد الحميد مقبل) (أبو مرشد) إذ قال لأبي: لقد أخذتُ زوجتَك والصغارَ مع زوجتي إلى مغارة (أم النمل) في (دبوسيا)، إن "إسرائيل" بدأت عدوانها علينا وعلى مصر والأردن اليوم منذ الصباح الباكر، فأوصل هذين الولدين إلى هناك ثم عد إلينا، وكنا قد أُبلغنا بضرورة الاجتماع بعد العصر مع قائد الجيش الشعبي لرسم خطة المقاومة وتوزيع المهمات على الأهالي.

سمع أبي ما قاله عمي وظلَّ صامتاً، وتابع أبي مسيره إلى دارنا وأنا خلفه. دخلنا الدار فرميت (الشَّبك) عن الحصان، ثم قلت لأبي: إني ذاهب إلى وادي الزيتون.

قال أبي: لا. لا تذهب، فلم أستجبْ له، وانطلقت إلى الوادي عند عين (عبون)، قائلاً له، وأنا أهمُّ بالمغادرة: سوف أعود وألحق بأمي وإخوتي في (دبوسيا) في مغارة (أم النمل)، وسألحق بك فيما بعد في طريقك إليهم،

كي تدلَّني إلى هناك لأنني لا أعرف الطريق إلى المغارة، ولكنني حينما وصلت إلى العين وجدت عائلة مع أبنائها هناك، فنزلت وسقيت الحصان ثم ربطته قرب مجرى ماء العين بأشجار **(العُلَّيق)** ليرعى العشب الوفير هناك، وعدت وجلست مع أولاد عائلة **(محمد أبو مشيلح)** **(أبو نمر)**، وهم أصدقاء لي في الأصل، ورحبت أمهم بي كثيراً، ثم سألتني: لماذا أنت هنا دون أهلك؟ فحكيت لها القصة فقالت: لا بأس؛ فلْتبقَ معنا ولا تتركنا، فارتاحت نفسي لكلامها، فهي الأخرى كانت صديقة لأمي.

وعند العصر بدأ الطيران الصهيوني يقصف بلدتنا الحبيبة، وراحت المدفعية ترمي قذائفها على أطراف بلدتنا، ولكننا في الوادي لم نشعر بشيء، إذ إننا لم نكن نسمع إلا أصوات الانفجارات.

كنا في الوادي في مغارة تبعد مترين عن العين ونحن في أمان، وكنا حينما يهدأ القصف نخرج من المغارة ونجلس على بعض الصخور أنا و **(شحادة)** و **(عطا الله)** أولاد **(أبو نمر)**، ولم يضع لنا أحد طعام الفطور، فكنا نشعر بالجوع الشديد، فمن يوم أمس لم نأكل شيئاً، فقررت أن أركب الحصان وأذهب إلى القرية لجلب الطعام. ركبت الحصان ووصلت إلى دارنا وفتَّشتُ عن طعام فوجدت كثيراً من الخبز، فوضعته كله في كيس، ثم ذهبت إلى خُمِّ الدجاجات، فوجدت فيه ما يقارب عشرين بيضة، ثم تساءلتُ بيني وبين نفسي عمّا ينبغي أن أجلبه معي أيضاً؟ فقررت أن أحمل شيئاً من الزيت والسمن في علبتين كانتا تُستخدمان لحفظ الدِّبْس، وهما محكمتا الإغلاق، فوضعت في إحداهما الزيت، ووضعت في الأخرى السمن البلدي، وبالتأكيد لم أنسَ الملح ولا علبة الكبريت، وكذلك أحضرت مقلاة

وطنجرة صغيرة وسكّيناً وقليلاً من البصل، ثم عدت إلى العين، فرأيت من بعيد (أمّ نمر) وأولادها يرقبون الطريق بانتظار عودتي.

لم أخبر أحداً بذهابي إلى دارنا في البلدة إلا رفيقي (شحادة)، لكنه أخبر أمه فقلقت عليَّ كثيراً.

لم أخبرهم بذهابي خوفاً من أن يمنعوني من الذهاب. وصلت إليهم وفرح الجميع بوصولي سالماً وأعطيت لـ (أم نمر) كل ما جلبتُه ففرحتْ، ودَعَتْ لي بطول العمر والتوفيق الدائم، وسألتني ماذا تريدون بيضاً مسلوقاً أو مقليّاً، فلم يجبْها أحد من الموجودين، ولكني طلبت منها أن تصنع لنا بيضاً مقليّاً مع البصل فقد كنت أحب هذه الوجبة، فأشار الجميع بالموافقة، وكان الجميع يتبادلون أطراف الحديث، ويتضاحكون على الرغم مما نحن فيه، إلا (أبو نمر) فقد كان دائم الصمت، قليل الكلام، بل كان نادراً ما يتكلم، ولقد كانت تلك هي طباعه حتى قبل بدء الحرب.

كنت أتساءل بماذا يفكر هذا الرجل؟ هل هو خائف على داره لأنها قريبة جداً من الثكنة العسكرية؟ أو هو خائف على أمواله التي يخبِّئها في مكان ما؟ إنك إذا نظرت إليه لا تعرف هل هو حزين أو خائف أو فرحان، أو غضبان، فأنتَ لا تستطيع تفسير ملامح وجهه. إنَّ وجهه مثل تمثال الحجر لا حياة ولا روح فيه، فأنا لم أرَه ولم أسمعه مرة واحدة يضحك أو يبتسم، كما أنه كان يتصفُّ بالشُّحّ مع أنه كثير الرزق.

وفي حين كنا، نحن الأولاد الصغار، نلهو ونتمازح بعضنا مع بعض، قالت (أم نمر): "تعالوا فقد نضج الطعام"، فجلسنا ووضعت لي (أم نمر) ولولديها صحناً من البيض المقلي مع البصل بالسمن العربي، ووضعت

الصحن الآخر لها ولابنتها الصغيرة ووضعت لأبي نمر حصّته من الطعام، فأكلنا حتى شبعنا، ثم قمنا واحداً تلو الآخر لغسل أيدينا وفمنا ووجهنا، وشربنا من ماء عين **(عَبُّون)** وهو ماء زلال لذيذ الطعم، باردٌ صيفاً، دافئٌ شتاءً. إن ماء **(عين عبُّون)** ماءٌ لا مثيل له، فأنا لم أذُقْ ماء سائغاً مثلَ ماء **(عين عبُّون)** منذ نكسة حزيران.

صرنا جميعاً بعد أن شبعنا لا نأبه بالقصف ولا بصوت الطيران، وفي المساء حضّرت لنا **(أم نمر)** بيضاً مسلوقاً؛ لكل واحدٍ منا بيضة، وفي الحقيقة كنا لا نحسُّ بالجوع، فلقد أتخمتْنا وجبة الغداء لأنها كانت غداء وفطوراً في آنٍ معاً.

سهرنا قليلاً بعد مغيب الشمس، ثم نمنا إلى الصباح. استيقظنا مبكّرين وكانت تلك عادتي دائماً؛ إذ كنت استيقظ عند الفجر، غسلت وجهي من ماء العين ثم ركبت الحصان متوجّهاً إلى البلدة... سألتني **(أم نمر)**: هل ستعود؟ قلت لها: نعم، وانطلقت إلى البلدة حتى وصلت إلى دارنا، فدخلت إليها وجمعت بيض الدجاج كله، ثم أحضرت قليلاً من حب الزيتون، وذهبت إلى فرن الخبز في بلدتنا، وهو فرن **(أولاد شكري)**، وطلبت منه ثلاثة كيلو غرامات من الخبز، وقلت له: إن أبي سيدفع لك، قال لي **(ابن شكري)**: لا مشكلة في ذلك، فقد كان يعرفني ويعرف أبي، وكنت صديقاً لأخيه الأصغر **(محمد الشكري)**.

أعطاني **(ابن الشكري)** ما طلبت من الخبز فذهبت إلى دارنا حيث الحصان والأشياء التي سوف آخذها معي إلى المغارة في الوادي فحملت كل شيء على الحصان، ثم ركبتُه متَّجهاً إلى الوادي، وفي طريقي إلى هناك وقريباً

من (عين مالك) كانت هناك قطعة أرض لعمي (علي مقبل) أبو رشاد مزروعة بالحمّص وكان الحمص بين الصُّفرة والخضرة لم ييبس بعد؛ أي إنه يمكن شويه على النار، وهو حينئذ يكون لذيذ الطعم، طيب المذاق، مُغَذِّياً، فنزلت عن الحصان وتركته يأكل نبات الحمص، والمواشي عموماً تحب أكل الحمّص، لأنه مالح، فصرت أقلع أبيات الحمّص حتى صارت حزمة كبيرة فربطتها بحبل صغير كان معي في (الـخُـرْج) المحمول على ظهر الحصان، ثم حملتها بيدي وركبت الحصان متَّجهاً إلى (عين عَبُّون)، وحينما وصلت كان الجميع في انتظاري هناك.

نزلت عن الحصان. قالت لي أم نمر: ماذا جلبتَ معك هذه المرة يا بطل؟ فأعطيتُها ما جلبت وذهبت لأربط الحصان عند الساقية ليشرب ويرعى العشب الأخضر الطري، ثم عدت إليهم، وكانت (أم نمر) قد أعدَّت لنا طعام الفطور وقدَّمت لنا الزيتون والبيض المسلوق فأكلنا حتى شبعنا، ثم بدأت أنا وصديقي (شحادة) نسبح في بركة العين، ثم خرجنا وارتدينا ملابسنا وجلسنا نتبادل أطراف الحديث، وعند العصر كنت أجلس على صخرة وأنظر إلى الطريق المؤدي إلى بلدتنا، وفجأةً لاح لي من بعيد رجل قادم إلينا يسير الهوينى ويحمل بندقية الجيش الشعبي، فعرفت من مشيته ومن ملابسه أنه أبي، ولـمّا وصل وأقبل علينا نزلت عن الصخرة ووقفت مستنداً إليها فقال لي فوراً: مرحباً بني، أين الحصان؟ هل أضعته؟ قلت له: لا، إنه هناك. قال: حسناً، إن أمك تبكي عليك كثيراً وطلبت مني إحضارك إليها، فرفضتُ الذهاب معه، فقال: أريد الحصان، لأنني سأحمل عليه الطحنة وأوصلها إلى هناك إلى مغارة (أم النمل) لتعجن أمك وتخبز لأخوتك غداً في الصباح. اذهب معي، بنيّ، اليوم تنام في القرية وغداً في

الصباح نذهب إلى أمك، فرفضتُ ذلك أيضاً؛ حاول إقناعي مراراً ولم أوافق، ثم قال لي: أنا لا أستطيع البقاء هنا، ثم ركب الحصان وغادر، وعدت أنا للجلوس فوق الصخرة وبدأت أفكّر كثيراً في أهلي جميعهم، وكان أبي رحمه الله قد قال لي فيما قال: إذا احتل الصهاينة بلدتنا فسيقبضون عليك ويقتلونك، وفيما كنت أفكر في ذلك خطرت لي قصة طوفان سيدنا نوح عليه السلام حينما بنى السفينة وطلب من ابنه أن يركب معه في السفينة ورفض، وما حصل له بعد ذلك.

فنظرت إلى الطريق المؤدية إلى بلدتنا ورأيت أن أبي قد وصل إلى تحت نادي الضباط، وما هي إلا أمتار ويغيب عني في حنايا الطريق، فقرَّرت اللحاق به وانطلقتُ كالسهم وكان معروفاً عني سرعة الجري، وما هي إلا دقائق حتى لحقت به، فالتفت إليّ وقال: بارك الله فيك يا بني، حسناً فعلت، وطلب مني الركوب خلفه على الحصان.

وصلنا القرية ودخلت إلى دارنا، وكانت الشمس قد غابت، وكان القصف يشتدّ حول القرية والطيران لا يهدأ، لكننا تناولنا العشاء أنا وأبي، ثم قال لي: يا بني، أنا لديّ حراسة طوال الليل عند مولِّد (موتور) الكهرباء، والملجأ بجانبه، فاذهب لتنام هناك، لتكون قريباً مني وأكون قريباً منك، وأما الآن فاذهب معي، فوافقت وحمل بطانية ومخدَّة صغيرة وذهبنا إلى الملجأ، وهو ليس بالبعيد عن دارنا، وكان قد دلّني على مكان حراسته.

اشتَدَّ القصف ليلاً على المواقع العسكرية، وكانت هذه المواقع كثيرة حول بلدتنا، وكانت أصوات القصف تُسمع في الملجأ مُضَخَّمة مرعبة، فلم أستطع النوم مطلقاً وكان أبي كل ساعة أو أقل ينزل إلى الملجأ ليطمئن عليَّ،

وكان معه مصباح جيب (بيل) يعمل على البطاريات فيجدني مستيقظاً، فيقول: نمْ يا ولدي لترتاح قليلاً؛ أوشك الفجر على البزوغ، وحينها سوف نذهب إلى أمك، فأقول له: لا تهتم يا أبي، لم أشعر أني بحاجة إلى النوم ولست نعسانَ... فيخرج.

وبعد ساعة أو أقل ناداني من باب الملجأ ولم ينزل إليّ كعادته، فخرجت إليه، وكان معه الحصان، وعلى الرغم من ذلك لم يحمل عليه الطحنة التي يريد أن يأخذها لأمي، فقلت في نفسي ربما غيَّر رأيه فسكتُّ ولم أنطقْ ببِنْتِ شَفة، فأركبني على ظهر الحصان، وقال: تمسّك جيداً يا بني، فقد كان الجو معتماً قليلاً، وسار أبي ممسكاً برسن الحصان إلى أن خرجنا من القرية ونزلنا أول طريق وادي (بعِسْتَا) وبدايته تقع تحت الثكنة الجنوبية التي كانت تحوي مدفعية (الهاون) آنذاك، فقال لي: لقد نسينا الطحنة يا بني سأعود وأحضرها فوراً، قلت له: دعني أذهبْ معك، قال: لا، انتظرني هنا ولا تتحرك ولا تترك المكان، بُنَيَّ، ولا تذهب مع أي أحد. سأعود بسرعة إن شاء الله، فلا تخف.

أنزلني أبي عن ظهر الحصان وأجلسني بين صخرتين وقال: إذا سمعت صوت انفجارات فأخفضْ رأسك خلف هذه الصخور وأعطاني بندقية الجيش الشعبي التي كان يحملها وهي من نوع (٣٦) فرنسية الصنع، وأعطاني كذلك جعبة الطلقات التي فيها (١٥٠) طلقة، ثم ركب الحصان وانطلق.

طلعت الشمس واشتدَّ القصف على الثكنة الجنوبية؛ من المدفعية والطيران الصهيونيَين المعاديَين، وكانت الشظايا والصخور وحتى التراب يتطاير من فوقي وحولي فأنا في أسفل السفح، وكان كل من يمرّ بي يقول:

ماذا تفعل هنا يا ولد؟ مَن تنتظر؟ هل هذا مكان اختباء؟ إنك في أخطر مكان. وكنت أقول لهم: إنَّ أبي وضعني هنا وعاد ليحضر الطحنة من دارنا وأمرني ألّا أتحرك من هنا حتى يعود إليّ، وكان أغلب الناس يعرفون مَن أنا ومَن أكون.

بلغت الساعة الثامنة صباحاً ولم يعد أبي، ثم بلغت التاسعة ثم العاشرة ولم يعد أبي كما وعد. وصارت الشمس تحرق رأسي فقد كنا في فصل الصيف. فكرت، ماذا أفعل؟ هل أعود إلى الدار وأبحث عن أبي أو أبقى في مكاني أو ماذا؟ فقلت في نفسي سوف أسأل كل شخص أعرفه عن أبي، فصرت أسأل كل قادم من بلدتنا ولم أصل إلى نتيجة. صرت أفكر أيضاً بالعودة إلى (عين عبّون) إلى مكان وجود أولاد (أبو نمر)، ولكني خفت ألّا أجدهم، فقد تركتهم منذ الأمس.

بدأت أشعر بالضياع والخوف معاً، وفي حين أنا على هذه الحال وإذا برجل عجوز أعرفه حق المعرفة واسمه (عمر القرعوط) يركب جحشاً صغيراً، فسألته عن أبي، فقال لي: أنت ابن (صالح) قلت له: نعم. قال لي: يا بني، إن حارتكم قد قُصفت بالطيران قبل ساعتين، ولقد رأيت ذلك بأم عيني، ولا ندري ماذا حصل، تم تابع قائلاً أين أمك؟ فقلت له: في (دبوسيا) في مغارة (أم النمل)، فهزَّ رأسه وقال: امشِ معي يا بني، فمشيت معه أحدِّثه ويحدثني، ومما قاله لي: إن ابن عمك (فوزي أحمد العويد) (أبو مروان) يأتي إلينا يوميّاً في مغارة (صفورية) نهاراً، إما ذاهباً إلى مغارة (أم النمل) أو عائداً منها، لأن أهله هناك مع أهلك، فإنْ وصلنا ووجدناه فسوف يوصلك إلى أهلك، وإن لم يكن موجوداً فسأوصلك أنا إلى أمك هذا اليوم إن شاء الله.

فطمأنني بكلامه هذا، وتابعت السير معه نزولاً ثم صعوداً، وكنت أحياناً في صعودنا أمسك بذيل الجحش من شدة الارتفاع، وهكذا... إلى أن وصلنا مغارة (صَفُّورية).

كانت مغارة (صفورية) كبيرة فيها كثير من العائلات، وكان وجهي أصفر شاحباً وكنت متعباً جداً، ولا سيما أنني لم أَنَــمْ ولا لحظة الليلة السابقة في الملجأ.

حينما وصلنا شاهدت ابن عمي (فوزي) أبو مروان أمامي مباشرة وقد قدَّمت إحدى النساء الموجودات لي كأساً من اللبن المخفوق / (الشنينة) أو (العيران)، في حين كان الحاج (عمر القرعوط) يحكي للحاضرين قصتي مع أبي وكيف وجدني في الطريق تحت القصف، فارتحت قليلاً، فقال ابن عمي أبو مروان: كيف هي همَّتك؟ هل نمشي؟ قلت له: أنا جاهز.

وخرجنا من مغارة (صفورية) مودَّعين بالسلامة، وسرنا أنا وابن عمي في طريق ترابيّ بين (صفورية) و(دبوسيا)، وكان مسار الطريق خالياً من النباتات والأشواك، ولا سيما أشواك (الخبِّ) وهي تشبه النبتة التي يسمّيها أهل الشام بـ (الأرضي شوكي)، ولكنه في الجولان نبات بريّ، وكنا لا نأكله أبداً، ولا نطعمه للمواشي، ولا نتركها تأكله، باستثناء الجمال فقد كانت تأكله، لأنها تأكل كلَّ شيء ولا تهمها الأشواك.

بدأنا أنا وابن عمي السَّير، وكان هو شابّاً في أول شبابه، وأنا طفل في الصف الخامس الابتدائي حينها. ظلَّت غارات الطيران الصهيوني والقصف مستمرَّين بكثافة، حتى إن الطيران المعادي صار يطير على علوٍّ منخفض لتفادي ضربات مدفعية جنودنا الأبطال المضادة للطيران المسمّاة (م.ط)،

فقال لي ابن عمي: أنت تحمل بندقية وإذا رآنا الطيار فسوف يقصفنا، لذلك يجب أن نسير بجانب الطريق كي لا تقصفنا الطائرة التي تحلّق في المكان، فقلت له: معك حق. وبدأنا السير بمحاذاة الطريق بين الأشواك.

كانت أشواك (الخبّ) كثيفة نوعاً ما، وكانت أشواكها مثل الإبر طويلة وقاسية وكان ارتفاع نبات (الخبّ) مساوياً لطولي تقريباً، ولذلك كانت الأشواك تصيبني في كتفي أو في وجهي أو يدي، وكنت أجد صعوبة في تفاديها، ولم يُصب ابن عمي ما أصابني من وخز أشواك (الخبّ)، لأنه أطول مني وأقوى، فهو شاب، وكان يحمل عصا تعينه على تفادي كل الأشواك، وكانت بندقية أبي عبئاً ثقيلاً عليّ فهي أيضاً تساوي طولي تقريباً، إضافة إلى وزن جعبة الطلقات التي كنت أحملها.

كان الطريق الترابي بين صفورية ودبوسية ليس بالطويل، وعلى الرغم من ذلك فقد أهلكني وأتعبني ولم أصل قرية دبوسية إلّا وقد أدمَت أشواك (الخبّ) كتفي ووجهي ويديّ، ونزلنا من قرية (دبوسيا) باتجاه وادي اليرموك. مشينا مسافة بسيطة ثم قال ابن عمي: فلنجلس هنا تحت شجرة البلوط هذه. قلت له: لماذا؟ قال: لننتظر حتى يهدأ الطيران. ظننتُ أن المغارة بعيدة بعض الشيء، فجلسنا ننتظر ثم بعد قليل هدأ الطيران فقال لي ابن عمي: هيا نمشي، فنهضت ومشيت خلفه بضع خطوات لا تزيد عن عشر خطوات، وإذا به يدخل فتحة بطول متر تقريباً وعرض نصف متر، وقال: ادخل هذه أمك، فقلت له: لماذا جعلتنا ننتظر أكثر من نصف ساعة تحت شجرة البلوط والمغارة تحتنا؟ فقال: اسكت يا ولد حتى لا تكون هناك طائرة في الجو وتكشفنا وتكشف مدخل المغارة، ولا سيّما وأنت معك هذه

البندقية، فحينئذ سوف يظن الطيّار أنه موقع عسكري وأننا من العسكر، فيقصفنا بقذائف طائرته فتقتلنا جميعاً. هل فهمت يا ولد؟ فأقنعني وأسكتني، ثم عاد وقال: هيا ادخل. فدخلت ووجدت أمي تبكي، فهي قد بدأت البكاء منذ سماعها صوتي قبل أن تراني وكذلك إخوتي وأخواتي كانوا يبكون لبكاء أمي. قبَّلتُ رأس أمي وطلبت منها السَّماح والرضا، لأنني لم ألحق بها مباشرة مع أخي (أمين)، ثم سألتني عن أبي وعن مكانه، وعن السبب الذي منعه من أن يأتي معي؟ وتساءلت أيضاً لماذا لم يأتِ بالطحنة؟ فحكيت لها كلَّ شيء، وكانت أمي وأنا أحكي لها ما حصل تتنهَّد، ثم تشمُّني وتضمُّني وتقبِّلني وتقول: سلَّمك الله يا عمري. وكل حين تسألني: كيف استطعتَ أن تحمل البندقية وجعبة الطلقات كل هذه المسافة، لماذا لم تخبِّئها في مكان لترتاح من حملها، فإذا عدنا إلى بلدتنا إلى دارنا تذهب وتحضرها؟! وكنت أقول لها: لقد أمَّنني أبي عليها ولن أخون الأمانة، كما أنها تحمينا وقت الشدة، وهي تعرف أن أبي علَّمني فكَّها وصيانتها والرماية بها، وكنت أصيب الأهداف بدقة كبيرة على الرغم من صغر سني.

جاء المساء، وتعشيت مع إخوتي وأمي مساء ذلك اليوم، ثم سهرت قليلاً أسمع الأخبار من مذياع صغير كان مع أحد الموجودين في المغارة، ثم نمت كالمقتول من التعب، لأنني لم أنم ولا لحظة في الليلة السابقة.

استيقظت مبكراً كعادتي وكنت أسأل كل من يأتي إلينا قادماً من البلدة عن أبي، وكانت الأخبار لا تبشّر بخير. اقترب منتصف النهار وكان الرجل الذي معه المذياع يستمع إلى الأخبار وفجأة رأيته يقف ويرتجف ويقول: أعوذ بالله. أعوذ بالله، سألناه: ماذا هناك؟ فقال اسمعوا صوت المذياع،

ورفع صوته لأنه كان دائماً لا يرفع صوت المذياع حتى لا يفرغ شحن البطاريات حسب رأيه، وكي لا يزعج أحداً.

بدأ الجميع حينها يسأل الجميع: ما العمل؟ ثم خرج رجل متقدم في السِّنّ خارج المغارة وعاد فقال: إن أهل القرى يغادرون بيوتهم متّجهين إلى الأردن. هيا لنغادرْ نحن، ومن يعرف الكتابة فليكتبْ على ورقة: نحن غادرنا إلى الأردن، فإذا عاد أحد أقاربنا إلى هنا ليبحث عنا فسيعرف وجهتنا ويلحق بنا وأغلب الأقارب يعرفون القراءة والكتابة. وافق الجميع بعد جهد جهيد، ولا سيما أمي التي كان يشغلها غياب أبي، فحملنا الأشياء القليلة التي معنا وخرجنا من المغارة نزولاً باتجاه نهر اليرموك، وهو ليس ببعيد عنا.

وصلنا جميعاً إلى نهر الأردن متفرِّقين كي نتجنَّب قصف طيران الأعداء. قطعت النهر أنا وأَخواي أمين ومنصور رحمهما الله من مكان قليل العمق، لكنه سريع الجريان وصخوره في الأسفل زَلِقة، وعلى الرغم من ذلك تمكّنا من عبور النهر وصرنا في الأراضي الأردنية وبدأنا أنا وأخواي السير بجانب النهر للبحث عن أمي وأخواتي والحمار، فوجدناها قد عبرت النهر هي أيضاً، فارتحنا قليلاً ثم مشينا صعوداً متّجهين إلى أقرب قرية أردنية لنقيم فيها حتى يلتمَّ شملنا فوصلنا إلى قرية (سحم الكفارات) فاستقبلنا أهل البلدة بحفاوة ومحبة، ولقد كانت (تنكات) الماء وطناجر اللبن المخفوق (الشنينة) وأباريق الشاي والكؤوس موجودة تحت أشجار الزيتون وليس عندها أحد، فكنا نشرب إذا عطشنا ونرتاح تحت الأشجار إذا تعبنا، وفي أثناء تلك الاستراحات كنت أشاهد الطائرات المروحيّة الـ (هيلوكوبتر)

المعادية تنزل جنود القوات الخاصة الـ (كوماندوس) على الأرض في القرى الحدودية لاحتلالها وأسْر من فيها ونهبها وسرقة خيراتها.

كنا نبكي جميعاً لما أصابنا، وبقينا على هذه الحال إلى أن وصلنا إلى ساحة القرية، وكان المختار حينها أول المستقبلين مهلّلاً ومرحِّباً بنا، إذ أخذنا إلى مدرسة القرية ولم يترك المختار أي حاجة لنا إلى طعام أو شراب أو فراش إلّا وقضاها، وكان يقول: من لا يريد النوم في المدرسة فليذهب مع فلان أو فلان من الناس من أهل بلدته.

نحن وأمي لم نذهب مع أحد، لأننا كنا بانتظار عودة أبي. نمنا في المدرسة، وفي صباح كل يوم كنت أذهب إلى شفا الوادي منتظراً عودة أبي، وفي اليوم نفسه جاء إلينا عمي (عبد الحميد) رحمه الله فسمعته يقول لأمي ليلاً وكانوا يظنونني نائماً، لأن عمي لا يريد التحدث عن أبي وأنا أسمع، فهو يعرف كم كنت متعلِّقاً به وكنت رفيقه في كل درب ومكان، لذلك حدَّث أمي وقال لها: لقد قصفت الطائرة دارنا ورأيت الحجارة والتبن يتطايران إلى الوادي؛ فإذا كان أخي داخل الدار فليرحمه الله أما إذا كان خارجها فسوف يعود قريباً.

سمعت ما دار بين أمي وعمي وسكتُّ على مضض وكنت أنتظر الصباح كي أذهب إلى شفا الوادي وأعود بأبي. لقد كان لديّ أملٌ كبير في عودته إلينا سالماً. ذهبت ولم أجده، وفي اليوم التالي ذهبت إلى شفا الوادي وكانت معي بندقية أبي وجلست أنظر إلى الطريق المؤدي إليه، وبعد طول انتظار وإذا برجل يسير ببطء يحمل عصا يشبه أبي ويلبس ملابسه نفسها، ولكنه لا يضع الكوفيّة (القَضَاضَة) والعِقال على رأسه، اقترب أكثر فتأكدت أنه

أبي وناديته وهلَّلت ورحَّبت به، ثم أطلقت طلقة واحدة في الهواء احتفاءً به؛ هكذا سوَّلت لي نفسي، فسلَّمت عليه وعانقته ثم أخذ البندقية مني، وأفرغ منها الطلقات الأربع الباقية، فهي لا تتسع إلا لخمس طلقات ويجب أن تُلَقَّم حين إطلاق كل طلقة.

قال أبي: كيف حالكم جميعاً يا بنيّ، قلت له: نحن بخير. قال: حدّثني كيف استطعت الوصول إلى أمك، فحدَّثته طوال الطريق ووصلنا إلى المدرسة حيث أمي وإخوتي وأخواتي فعانقهم جميعاً وهو يذرف الدموع من عينيه، ثم جلس وطلب الطعام فأكل وارتاح، حينها قلت له: حدثني ماذا حصل معك؟ ولماذا لم تعد كما وعدتني؟ فقال: حينما تركتك يا بني وصلت إلى الدار بسرعة وسحبت الطَّحنة إلى الخارج ولم أستطع حملها ورفعها على ظهر الحصان فذهبت وجلست في الشارع جانب الطريق عساي أحظى برجل يرفع الطحنة معي على ظهر الحصان، وكان كل من يمرّ، وهم قلة قليلة، يقول لي: إن ظهره يؤلمه ولا يستطيع حمل شيء، أو يقول: إنني في عجلة من أمري ويعتذر وهو يمشي دون أن يقف، ومضت ساعات حتى وجدت أحد الرجال، وقال: تكرم يا أخي، وذهب معي إلى البيت وحملت وإياه الطحنة ووضعناها على ظهر الحصان ثم خرج مسرعاً، ودخلت الغرفة لأحضر الحبل كي أربطها وأثبِّتها جيداً، حينها هاجم ديك الحبش الحصان ونقره في فخذه فجفل وأوقع الطحنة عن ظهره، فخرجت مسرعاً أبحث عن الرجل فلم أجده، فعدت إلى الطريق العام أبحث عن رجل آخر يحملها معي، وانتظرت وانتظرت ولم أجد أحداً، ثم سمعت صوت الطائرة، تلاه صوت انفجار قوي فاختبأت بعض الوقت إلى أن ذهبت الطائرة، ثم ذهبت إلى

الدار فوجدت أن الطائرة قد قصفت التبّان فطارت حجارته والتبن الذي فيه إلى وادي العين تحت دارنا ووجدت أن الحصان قد هرب وصار في الوادي، ولكنه سليم لم يصب بأي أذى ولم أستطع الإمساك به، فلم يعد يطاوعني أبداً، إذ كان يهرب مني، مبتعداً عني، خائفاً مني، فعدت ونمت في الملجأ، وفي الصباح سمعت من أحدهم أن المنطقة سقطت بأيدي المحتلين الصهاينة الأشرار فآثرت اللحاق بكم من دون أن أجلب معي الطحنة والحصان، فذهبت إلى الوادي حيث تركتك، ولم أجد أحداً، ثم تابعت المسير إلى المغارة التي كنتم فيها ولم أجد أحداً أيضاً، فنمت فيها حتى الصباح، وحينما أردت الخروج منها، فوجئتُ بجنود الاحتلال يركبون سيارة ويطلقون النار باتجاه الوادي، فدخلت المغارة إلى أن حان الليل وهدأ كل شيء فخرجت زحفاً، وأحياناً حَبْواً، ولم أصل إلى ضفة نهر اليرموك إلا في الصباح فعبرت النهر، وكانت هناك عائلات كثيرة على ضفة النهر من جهة الأردن، فبدأت أبحث عنكم وأسأل إلى أن هدَّني التعب وأخذني النعاس، فنمت تلك الليلة عند إحدى العائلات في العراء على طرف النهر من ناحية الأردن، ثم صعدت من وادي اليرموك لأبحث عنكم في القرى الأردنية الحدودية والحمد لله أنني وجدتكم يا بني. كانت أمي تسمع الحديث وتبكي بصمت على ما حصل لنا وما سيحصل لاحقاً.

أقمنا في الأردن مدة أسبوع واحد ثم أتت حافلات سورية إلى (سَحَم الكفارات) وكان مختارها موجوداً فقال لنا: إنَّ القيادة في سورية تريد منكم أن تعودوا إلى وطنكم، فمن يريد العودة فليصعد إلى الحافلات، ومن يريد البقاء فليبقَ حيّاه الله، فصعد الجميع إلى الحافلات، إلّا من كان معه بعض

المواشي وكان منهم عمي، فقال لي أبي: ابقَ مع عمك (علي) وساعده، وكان معه بعض ثيران الحراثة وكذلك فلتُحضِرْ حمارنا معك، فكتُبت لي حينها رحلة عذاب أخرى.

سارت الحافلات تحمل النازحين وسرت مع عمي (علي)، وهو عمي الأكبر، ثلاثة أيام بلياليها حتى وصلنا إلى مدينة درعا. سألت عن أهلي الذين أعرفهم ويعرفوني فأخبروني أن أهلي في مدرسةٍ في شرق مدينة (درعا) على طريق (بصرى الشام) فذهبت إليهم مسرعاً على الحمار، مشتاقاً إليهم، تاركاً عمي (علي) الذي كانت عائلته تسكن مدرسة على شفا الوادي بين درعا البلد ودرعا المحطة، وكانت المدرسة في جهة درعا المحطة.

لقد اغتصب الصهاينة أرضنا بمساعدة قوى الشر في العالم ومساندتهم لهم، وإني أقول للمحتل ولمن يسانده: الجولان أرضنا و(فيق) هي درة الجولان بلدنا منذ الأزل، ونحن نريدها حرَّة أبيَّة طاهرة مطهَّرة من دنس المعتدين الصهاينة الأشرار، كما أنني أنا شخصياً أريد حصاني الذي بقي هناك فقد ربَّيته وروَّضتُه بنفسي مُذ كان عمره سنة ونصف، وقد كان ينتظرني أمام المدرسة ويرافقني في طريق العودة إلى البيت، كما أنني أريد طحنتنا التي بقيت في البيت وذاق أبي الـمُرَّ من أجلها، وأريد حتى ذرات التبن التي طارت إلى الوادي، فنحن لا ننام على ضيم ولا نترك حقاً لنا أبداً؛ ألا تعرفون أنه لا يضيع حقٌّ وراءه مُطالِب؟!

(دَرْبُ الحلاّبات)

يعمل أهل مدينتي (فيق) - إضافة إلى عملهم في الزراعة - في تربية الأغنام والأبقار كثيرة العدد، وفي نهاية فصل الشتاء وبداية الربيع تبدأ الأبقار والأغنام بوضع مواليدها بالتزامن مع بدأ الربيع، إذْ يبدأ الدفء ووفرة المرعى.

كانت الأبقار تعيش بين السكان في مدينتي في حظائر، إذ كان لكل أبقار فيق راعٍ واحد. في الصباح الباكر تحلب النساء الأبقار وتترك قليلاً من الحليب لمولودها ليرضع وبعد أن يرضع العجل - أو العجلة - ما تبقى في ضرع أمه من حليب، تعمل المرأة على إدخال كل العجول حديثة الولادة إلى الزريبة، ثم تُخرج كل امرأة الأبقار من الزريبة إلى الشارع، فكانت كل الأبقار تتجمع في ساحة وسط القرية تسمّى (الـمَرَاح) الذي تأتي إليه وحدها، ويكون راعي البقر والمسمّى لدينا (راعي العجّال) موجوداً، وحينها يتأكد أن كل الأبقار قد وصلت المراح، يصيح بها لتذهب إلى مرعاها المعتاد في وادٍ يسمى (وادي مسعود)؛ وهو وادٍ كثير الماء والكلأ وهو بمنزلة غابة حرجية وأشهر عين فيه هي (عين البيضا)، وقبيل الغروب بقليل يسوق الراعي الأبقار من الوادي إلى القرية لتذهب الأبقار إلى بيوت أصحابها وحدها، وأمّا هو فيُدخلها إلى أول البلدة فحسب، مع علمه بأن الأبقار كلها قد خرجت من الوادي، وكانت الأبقار التي لديها مواليد

تذهب مسرعة إلى بيوت أصحابها لتُرضِع مواليدها بعد أن تُحلب، وهكذا دواليك... أحياناً يأخذ الراعي أبقار البلدة إلى السَّهل، لعلمه أن الحصاد فيها قد انتهى، وحينما ترعى الأبقار أي مكان من سهول فيق فهي تعمل على تسميده بروثها سماداً طبيعيّاً. هذه تقريباً حياة الناس مع أبقارهم، أما ما كان يحدث بالنسبة إلى أغنامهم فتلك قصة أخرى تبهج النفس وتسر الخاطر، فحينما تلد الأغنام يترك أصحابها فرصة وفترة من الزمن للمواليد الصغيرة لترضع من أمهاتها، وهذه الفترة ليست سوى أيام قد تزيد قليلاً أو تنقص، وذلك لتكمل الأغنام وضع مواليدها، وحينما تنتهي من وضع المواليد يرسل الراعي خبراً لأصحاب الأغنام بأنه يمكنهم البدء بحلب أغنامهم من يوم غد أو بعد غد، ولأنَّ الراعي يسكن في خيمة (بيت الشَّعْر) بعيداً عن القرية فلا بدّ من الذهاب إليه، وكانت هذه مهمة النساء، إذ تُجهِّز كلٌّ منهنّ وتُعِدُّ ما تحتاج إليه لحلب أغنامها، من مثل تجهيز (القِرْبَة) التي ستضع فيها الحليب وقليلاً من الماء للشرب، فتحملها معها، ومن مثل الحبل الذي سوف تشبك فيه الأغنام حين حَلْبها، وتضع كل ذلك في (خُرْج) يوضع على ظهر الدابة التي سوف تحملها إلى الراعي الذي قد وُضعت أغنامها لديه. وفي وقت معين من كل يوم عند العصر تبدأ النسوة بالخروج إلى الراعي، وعند طرف من أطراف البلدة يتجمَّعنَ وقد تنتظر كلّ واحدة منهنَّ مجيءَ الأخرى، ومن ثم ينطلقن على شكل قافلة متَّجهات إلى خيمة الراعي حيث يسكن هو وزوجته وأولاده، في الوقت الذي يكون فيه قد جاء من المرعى مع أغنامه.

وكان لكلِّ حيٍّ أو جماعة من سكان القرية راعٍ خاص، وكانت أغنامنا موجودة لدى راعٍ اسمه (سَحُّوم)، وهو رجل متوسط الطول، أسود اللون،

عيناه حمراوان، وأسنانه بيضاء وشفاهه غليظة، ولا سيّما شفته السفلى، وطوال الطريق كانت النسوة يتبادلنَ أطراف الحديث، فيتحدَّثنَ في كل شيء، ويقُلْنَ عني حين كنت أرافق أمي في بعض الأيام في مشوارها هذا: إنه يسمع وينصت، فتقول إحداهن: إنه صغير لا يفهم، إنه صغير لا يعرف شيئاً، وحينما يقتربنَ ويُقبِلن على خيمة الراعي (سَحُّوم) القريبة من قرية العال عند (الرُّجْم) المسمّى (رُجْم العال)، يبدأنَ بالأهازيج وترديد بعض الأغاني الشعبية التي كانت تُغنّى في الأعراس والأفراح، مثل تلك الأغنية الشعبية المشهورة جداً التي غنّاها المطربون والمطربات، إذْ كُنَّ يمازحنَ بها (سحُّوماً) بوصفه أسمر اللون، فيُغنينَ على بعد أمتار من خيمته:

(مـا ريـدو، مـا ريـدو ها الأسمراني مـا ريـدو
لـو جـابوا لي الـذهبْ ولبَّـسوني القـصبْ
مـا ريـدو، مـا ريـدو ها الأسمراني ما ريـدو)

لقد كان سحوم أصلاً بانتظارهنَّ على أحرَّ من النار والجمر، فكان حينما يسمع أصواتهن يخرج إليهنَّ حاملاً بيده برّاد القهوة الـمُرَّة المسمّى الـ (برجك) ويبدأ بصب القهوة لهنَّ بسرعة، لأنه يريد أن يكسب مزيداً من الوقت ليعزف لهنَّ على المزمار (الـمِجْوِز) فيبدأنَ بالدبكة، وكذلك كانت النسوة يغنّينَ له، وهو يصبُّ القهوة أغنية مشهورة جداً غنَّتْها المطربة (سميرة توفيق) وغيرها من المطربين والمطربات وهي:

(بالله تصبُّوا ها القهوة وزيدوها هيلْ واسقوها للنـشامى عَ ظهـور الخيـلْ
قهوتنـا للأجـوادِ أوَّل بـادي لـلي نـاره وقّـادي بظـلام الليـلْ)

وكنت كلّما رأيتُ هذا المشهد مع أمي رحمها الله والنسوة الحلّابات يغنينَ هذه الأغنية، أرى الراعي **(سحُّوم)** يهيج هيجاناً شديداً، إذ كنت أرى شفتَيه الغليظتين ترتجفان مثل شفتَي بعيرٍ وتتجمَّر عيناه وتتسعان ويزداد بريقهما، ولا أدري ماذا كانت تمثل هذه الأغنية بالنسبة إليه، وبعدها يستلُّ **(سحُّوم)** المزمار **(الـمِجْوِز)** من مكان في داخل صَدْرِ قميصه **(عُبِّه)** ويبدأ العزف بقوة، وحينئذ كنت ترى أوداجه تنتفخ وعيناه تلمعان وتبرقان مثلما ضوء الشمس على الزجاج، وتشبك النساء أيديهنَّ بعضها ببعض، ويبدأنَ الدبكة، وكان **(سحُّوم)** الراعي يعزف على المجوز ويدبك ويهزُّ أكتافه معهنَّ إلى أن يتعبنَ ثم يتركنَ الدبكة، وتذهب كلُّ واحدة منهنَّ إلى حمارها، فتُخرج من الخُرج على ظهر الحمار الماء لتشرب أولاً، ثم بعد أن تشرب تُخرج الحبل والوعاء الذي سوف تحلب فيه الأغنام، ثم تخرج القِرْبة التي سوف تضع فيها الحليب كله، ثم تشبُك كل امرأة أغنامها بالحبل الذي جلبته معها، ثم تبدأ بجلب أغنامها، إذ تصَبُّ الحليب داخل الوعاء الذي تضعه تحت النعجة، وما إن تُنهي المرأة حَلْبُ نعجةٍ حتى تنتقل إلى الأخرى وهكذا إلى أن يمتلئ الوعاء، فتذهب وتفرغه في القرية، ومن ثمَّ تعود لمتابعة حلْب بقية النعاج، وهكذا... حتى تُنهي حلب كل النعاج، وكلما امتلأ الوعاء بالحليب تفرغه في القربة، والجدير بالذِّكر أنَّ كلَّ امرأة منهنَّ كانت تعرف كمية حليب التي تُنتجها نعاجُها.

قبل مغيب الشمس بقليل تنتهي كل النساء من حلب أغنامها ويضعنَ الحليب في القِرَب داخل الخُرج على ظهر الدابة، وحينئذٍ يصبُّ الراعي **(سحوم)** القهوة الـمُرَّة مَرَّةً ثانية للنساء فيودِّعْنَه جميعهنَّ ويركبنَ على حميرهنَّ ويَعُدْنَ أدراجهنَّ إلى البلدة التي تبعد عن مكان وجود الراعي مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريباً.

وفي أثناء العودة يدبُّ فيهنَّ الحماس والطَّرَب من جديد بعد أن تحرِّكه إحداهنَّ بالغناء فيرددنَ معها ما تقول، ويُطلِقْنَ العنان للزغاريد، ويبقين هكذا إلى أن يدنينَ من أطراف القرية فيسكتنَ ويودِّعنَ بعضهنَّ، وتسلك كل واحدة منهنَّ الطريق المؤدي إلى بيتها.

كانت تلك النسوة يذهبنَ يومياً من البلدة إلى الراعي ويبقينَ على هذه الحال أكثر من شهرين دون انقطاع حتى يجفَّ الحليب في ضرع الأغنام، وكانت المرأة في بلدة فيق تروح وتجيء يومياً لحلب أغنامها دون خوف ودون أن تحس بأيِّ خطر، وكان لا يستطيع أحد ما أن يتعرض لهنَّ بسوء مهما كان وأيّاً كان، لأنهنَّ معروفات للجميع، فهذه أمُّ فلان وتلك زوجة فلان أو أخت فلان أو بنت فلان، وبعد انتهاء وقت الحليب بفترة تقارب الشهر أو أكثر يأتي وقت قصِّ صوف الأغنام وهنا تبدأ مهمة الرجال. كان الراعي يرعى الأغنام على أساس الرُّبْع أي إنَّ له الرُّبع من الخراف ولصاحب الأغنام ثلاثة أرباع، وكذلك الأمر في اقتسام الصوف فله جَزَّة واحدة ولصاحب الأغنام ثلاث جُزَز، إضافة إلى تكفُّل أصحاب الأغنام بمعيشة الراعي وأهل بيته وكسوتهم في العيدَين؛ عيد الفطر وعيد الأضحى.

هكذا كانت العادة وهكذا كان العُرْف في أجرة الراعي، ولذلك كان الراعي حريصاً على أن تكون كلّ أغنامه قد حملت من الكبش في أثناء فترة التزاوج، فإذا ما شكَّ في أنَّ نعجةً لم تحمل من الكبش، تَرَاه يمسك بها ويهيِّج الكبش عليها، لأنَّ من مصلحته ذلك، إذ ستزيد حصته من الخراف التي ستولد، فقانون أجرة الراعي المتعارف عليه هو (ثلاثة أرجل ورِجْل)، أي إن لصاحب الغنم ثلاثة أرجل من المولود وللراعي الرِّجْل الرابعة؛ يعني أن للراعي خروفاً من كل أربعة خراف.

كانت أيام حَلْبِ الأغنام أيام مسرّات وخير وودٍّ بين النساء من أهل بلدتي والراعي، وتتحكَّم فيها مبادئ الأخلاق والشرف والعفة بشكل لا متناهٍ، وكنت أنا الولد الصغير أذهب مع أمي رحمها الله في أغلب رحلاتها اليومية، وقد كانت بعض النساء الأخريات يُـحضِرن معهنَّ ولداً أو بنتاً، وكم كنت أُسَرُّ حينها، لأنني سوف ألعب معهم، سواء أكانوا أولاداً أم بنات، فسوف نلعب معاً ونفرح ونمرح كثيراً إلى حين أن تنتهي النسوة من مهمتهنَّ، ومَن مثل الأطفال يحبُّ اللعب والفرح والسرور! كنا نشاهد كل شيء في الطبيعة ونحسّ بجماله الأخّاذ، ولا سيّما أنَّ الفصلَ فصلُ الربيع وما أدراك ما جمال فصل الربيع في الجولان! حيثُ الدفء والخضرة والأشجار والمروج المملوءة بالأزهار والورود على مَدِّ النَّظر... فآهٍ ... آهٍ... آه، ولعلّي في تذكّر تلك الأيام أقول مجارياً جميلَ بثينة:

أَلَا ليــتَ ريعــانَ الــشبابِ جديــدُ وأنّــا إلى الجــولان يومــاً نعــودُ

(أيام الحصاد والبيادر)

بعد انتهاء موسم الحليب تأتي بدايات أيام فصل الصيف، إذ تبدأ تلك الحقول مترامية الأطراف التي كانت قبل أيام خضراء على مدِّ النظر حول مدينتي فيق بالنمو والتمايز والبروز، فتتمايل مع الريح في منظر أخّاذ جميل مدهش، وحينما ترتفع درجة الحرارة قليلاً تبدأ تلك الحقول بالاصفرار مبشِّرةً بقدوم موسم الحصاد؛ موسم الخير والبركة وجمع الغِلال.

وللحصاد في بلدتي العزيزة (فيق) قوانين وأعراف متّبعة منذ القِدم، ولا يمكنك أن تذهب إلى حصاد محصولك في المكان الذي تشاء، بل يجب أن تحصد حيث يذهب الناس إلى الحصاد.

كان الناس يحصدون متفرّقين إذا كان حصاداً للشعير والعدس والحمص والسمسم والكَرْسَنَّة أو البيقياء (الجلبانة)، والكرسنة والبيقياء نباتان يستعملان علفاً للمواشي، فهذه المحاصيل التي سبق ذكرها يحين حصادها قبل القمح، كما تُقطف الذُّرة البيضاء وتُقلع حبة البركة السوداء التي يسميها أهل فيق (القزحة)، وأما حصاد القمح فيأتي موعده بعد هذا كله، ولكن كيف كان الناس يعرفون إلى أي جهة يتّجهون وإلى أي أرض يذهبون لحصادها؟ كان ذلك يتمّ عن طريق رجل يعمل لدى المختار وهو (الوَقّاف)، وقد يسمونه (كَحّال)، وكان يتلقى أوامره من المختار، فكان الوقّاف أو الكحّال واسمه (أحمد الكحّال) يأتي قبل الغروب بقليل إلى حارتنا ويصعد إلى سطح أحد

المنازل قليل الارتفاع، وهو لا يحتاج إلى إذن من أحد للصعود إلى هذا السطح، وكنا نحن الصِّبْية الصغار - وأنا منهم - نلحق به حينما نراه، لأننا نعرف أنه سوف ينادي بصوتٍ عالٍ على شيءٍ ما.

يصعد الوقّاف (أحمد الكحّال) ونحن الصغار نجري خلفه، وحينما يعتلي السطح الذي يقصده بعينه يبدأ بالصياح قائلاً: "يا أهل البلد. يا سامعين الصوت، صلوا على النبي، بُكْرَة الحصيدة في الأرض الفلانية، والحاضر يعلم الغايب"، وكان يتجه في كل مرة ينادي فيها بهذا النداء إلى جهة من الجهات الأربع، وحين ينهي مهمَّته ينزل عن السطح ليذهب إلى حارة أخرى، وكنا نحن الصبية نردِّد ما قاله حتى تُبَحَّ حناجرنا، وحينها يعرف الناس إلى أي مكان يتجهون عن طريق (الوقّاف) (أحمد الكحّال)، وكلمة وقّاف تمثل توصيفاً لوظيفة رسمية أو عمل حكومي معتمَد، مثلها مثل وظيفة الناطور، ومهمة الوقّاف هي إبلاغ الناس بشيء ما بأمر من المختار بوساطة المناداة، وكان يعمل آنذاك في هذه المهنة الوقّاف / (الكحّال) رجلٌ في الخامسة والأربعين من عمره، أو أكثر بقليل، يرتدي سترة تشبه السترة التي كان يرتديها رجال (الدَّرَك) قديماً؛ لها أزرار كثيرة كبيرة، وكان يحمل في يده عصا رفيعة طويلة ليخيف بها الصغار الذين يلحقون به أو الكلاب التي تعترض طريقه، لكنني أعتقد أنه كان يَعُدُّ عصاه من مكمِّلات هيبته ووجاهته، فحينما كان يصعد إلى ذلك السطح في حارتنا لينادي تراه عابساً مقطَّب الحاجبين مع أنَّ وجهه بحجم راحة اليد، وهو رجل متوسط الطول نحيل، وهذا كان يعطيه رشاقةً لا بأس بها، فيصعد السطح وهو بهذه الحالة وعيناه تلمعان مثل عيون القط، وحينما ينزل عن السطح بعد المناداة

تراه منتعشاً وكأنه نادى للإعلان عن الحرب، معتزّاً بنفسه وكأنه عنترة بن شدّاد العبسي لـمّا أغار على إبل الملك النعمان ليسلبها ويدفعها مهراً لعبلة، وحينئذ كان يرانا أمامه وعن يمينه وعن شماله فيبدأ بالصياح علينا قائلاً: "يا لّا يا ولاد، يا لّا من هون، يا لّا كل واحد ينقلع عل بيتو لعند أمو، يا لّا روحوا ناموا ؛ الدنيا المغرب".

وفي اليوم التالي يستيقظ الناس مبكّرين جداً، ذاهبين إلى حقولهم إلى الجهة التي حدّدها الوقّاف (أحمد الكحّال)، ومعهم كل ما يحتاجون إليه من أجل الحصاد، وأهم تلك الحاجات: الماء للشرب والمناجل للحصاد والدواب التي ستحملهم إلى الحقول والتي سيُنقل القمح المحصود عليها إلى البيدر.

كنت أرى أصحاب الزرع يتسابقون للوصول إلى حقولهم قبل شروق الشمس، وحينما يصلون يبدؤون العمل بنشاط وجدٍّ كبيرَين، فيبدؤون عملهم بصمت في بداية الأمر حتى يُحصد حِمْلٌ أو حِـمْلان من القمح، وفجأة تبدأ النساء بالأهازيج، ومن ثمَّ يشارك الرجال، وقد يبدأ ذلك بالعكس؛ أي يغني الرجال ومن ثم تبدأ النساء بالزغاريد، ثم ينتشر هذا الغناء وهذه الأهازيج والزغاريد في الحقول المجاورة كلها، فإذا مرَّ بهم أحدٌ أيّاً كان راكباً أم ماشياً يقولون له، أو يقول له أحدهم، وهو يحمل حزمةً من سنابل القمح في كفِّه: "هذا شمالك"، وهي تُعَدّ دعوة له لمشاركتهم في الحصاد مدَّةً وجيزة، ثم يغادر مودَّعاً بالسلامة، ومن الأهازيج التي كانت تُغنّى في أثناء الحصاد:

(يـا عـلّا، يـا حـصّادين السمـسم يـا عـلّا، خـلّي السمـسم بجراسـو
يـا عـلّا، ويـلّي يهـوى ومـا ياخـذ يـا عـلّا، هيلـوا الـسَّكَن ع راسـو)

ويردِّد الرجال والنساء هذا بعد الشخص الذي يبدأ به، سواء كان رجلاً أم امرأة، وقد يردّد الجيران في الحقول المحاذية لهم، فيشاركونهم في الغناء، ومن أهازيجهم أيضاً:

(مِـــنجلي يـــا مـــنجلي يـــا مـــنجلي يـــا مـــنجلي
منجلي يا بو رَزَّة)

ويظلّون يعملون بهذه الصورة إلى أن تصبح الساعة العاشرة أو أكثر بقليل. في هذا التوقيت يأتي إلى كل عائلة تعمل في الحقل رجل كبير أو فتى صغير أو امرأة ممن لا يشاركون في الحصاد، أو ممن لا يستطيعون المشاركة فيه، فيأتي على ظهر دابّة عليها **(خُرْج)**، وحينما يقترب إلى أي عائلة يعرف الحصّادون أنَّ هذا فلان أو أنَّ هذه فلانة وقد أتى - أو أتت - بطعام الفطور إليهم، ووجبة فطور الحصّادين غالباً ما تكون من اللبن الرائب أو اللبن المصفّى والمسمّى في بلدتنا **(لبن كيس)**، ومعه أحياناً بعض البيض المسلوق والزيتون وزيت الزيتون البلدي الأصلي والزبدة البلدية، فحينما يحضر جالب الفطور يرمي الحصّادون والحصّادات المناجل ويختارون مكاناً ويجلسون على الأرض لتناول طعام الفطور الذي أُحضر إليهم، وكنت أرى الناس يقدِّمون الضيافة لجيرانهم في الحقل مما أُحضر إليهم من طعام، وبعد انتهاء الفطور ينهضون لمتابعة الحصاد ولتحميل الدواب ما حصدوه أو بعض ما حصدوه، فينقله شخصٌ يدعى **(الرَّجَّاد)** إلى البيدر؛ والرَّجّاد هو غالباً ولد أو بنت أو شيخ لا يقوى على الحصاد، يحمل ما حُصد إلى البيدر، وكانت طريقة حمل القمح من السهل أو الوادي إلى البيدر هي إمّا على الحمار

بوساطة **(القادِم)**؛ والقادِم مكوَّنٌ من أربع قطع من الخشب، في كل طرف منه اثنتان، موصولتان بعضهما ببعض من الأعلى بحامل من الخشب أيضاً، والخشبة هذه محرَّرة من الأسفل، فالقادم يشبه السلم الحديدي في الوقت الحاضر المسمّى بالعاميّة **(السِّيبة)**، ولكنه من أسفله يتصل كلٌّ طرف منه بـ **(الرتشنة)**، وهي على شكل رقم سبعة أو ثمانية، ولها خطّاف في ملتقى طرفيها، انظر الصورة رقم **(١)**:

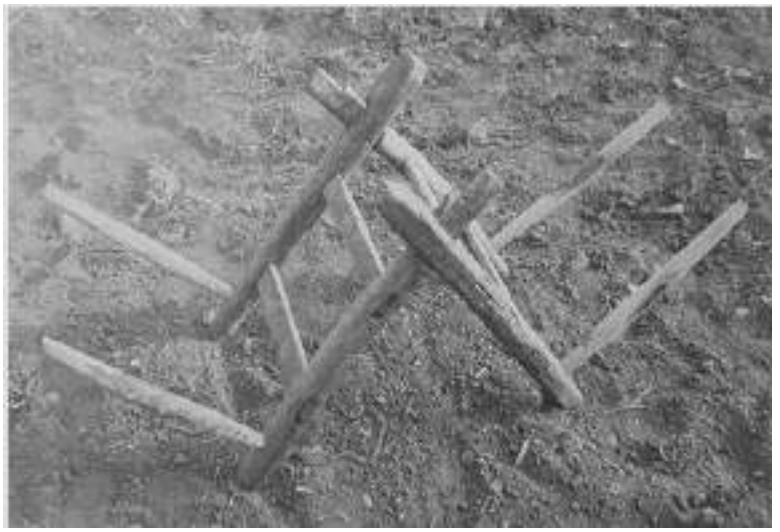

الصورة (١): القادم

توضع سنابل القمح بين خشبتَي **(القادم والرتشنة)** من كل طرف بارتفاع متر تقريباً، ثم تُحمَّل على ظهر الحمار بعد ربطها جيداً بالحبال، وبحيث تكون سهلة الفكّ في البيدر على **(الرّجّاد)**، ويجب أن يكون **(القادم)** بعيداً عن سطح الأرض مسافة شِبرَين تقريباً، بحيث لا يتعدى مستوى أسفل بطن الدابة كثيراً.

وأما الوسيلة أو الطريقة الثانية فهي وضع سنبل القمح في **(الشَّبَك)**، وغالباً ما يُحمل الشَّبك على ظهر حصان أو بغل، لأنه يتّسع لكمية أكبر من سنابل القمح المحصود، ويكون على طرفَـي الدابة بشكل متوازن، وليس غريباً أن ينتهي الناس من حصاد أرضهم انتهاءً متتابعاً، وكان مَن يُنهي حصاد حقله يميل ومن معه من الحصادين والحصادات إلى حقل جاره لمساعدته في إنهاء حصاد حقله، وما يتمُّ في هذه الجهة وحقولها يتمُّ كذلك في الجهات الأخرى وحقولها، وهكذا كانت أيام الحصاد أياماً جميلة، وأيام فرح وسرور وتعاون بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وفي النهاية يحصد الناس كلهم حقولهم في أي جهة كانت من بلدتي فيق، وينقلون سنابلهم إلى البيدر، وكان لكلِّ فلاح بيدره الخاص به، وكانت السنابل تُنقل بالطريقة نفسها والأسلوب نفسه، وكانوا يستعملون في حصاد حقولهم المنجل، انظر الصورة رقم **(٢)**:

الصورة (٢): المنجل

أو كانوا يقلعون سنابل القمح قلعاً من الأرض لأن الحصّادات الآلية كانت قليلة ونادرة في تلك الأيام، وكان الناس لا يحبّذونها لأنها ترمي بعض السنابل على الأرض، وكذلك لأن الحصاد بالمنجل يسمح لهم بالحصول على التِّبْن الذي سيكون علفاً للمواشي في فصل الشتاء.

يُجمع القمح في البيدر على شكل قُبَّة، إذْ على الفلاح في كل مساء أن يذهب إلى بيدره، ليرفع ما جلبه الرجّاد من سنابل القمح على شكل قُبَّة مستعملاً **(الشاعوب)**؛ وهو قطعة حديدية تنزل منها أربعة أصابع حديدية أيضاً، وفي وسط هذه القطعة الحديدية فوهة دائرية بطول الإصبع لوضع العصا التي تحمل الشاعوب والتي يمسك بها الفلاح؛ أي هي يدٌ كيَدِ الفأس أو الرَّفْش، انظر الصورة رقم **(٣)**:

الصورة (٣): الشاغوب

وهذه القُبَّة كانت تسمى لدينا (كَدِيساً)، وهذا الكَدِيس يُرفع في كل يوم، وأنا كنت أعرف أن أرض فلان أكبر من أرض فلان من خلال كِبَر حجم هذه القبة وارتفاعها، انظر الصورة رقم (٤):

الصورة (٤): الكديس

بعد الانتهاء من الحصاد يستعد الفلاح لدراسة سنابله على أرض البيدر؛ أي سحقها لفصل التبن عن حبات القمح، وكانت النساء قبل أن يبدأ الفلاح بدراسة سنابله بأسبوع أو أكثر يأتينَ إلى البيدر لجمع (القَصَل)، وهو ساق القمح دون السنبلة، لأنهنَّ سوف يصنعنَ من هذا القَصَل مستقبلاً الأطباق التي يوضع عليها الأكل في البيوت بدلاً مما يسمّى (السُّفْرَة) حالياً، انظر الصورة رقم (٥):

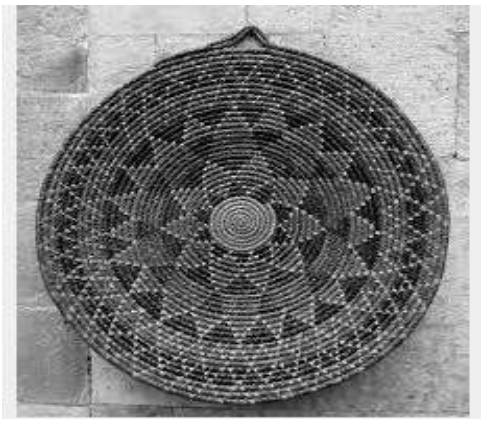

الصورة (٤):الطبق

ومن القَصَل ما يستعمل لوضع العجين عليه، حين تذهب المرأة من بيتها إلى التّنور لتخبزه، كما كانت النسوة يصنعنَ من القَصَل أوعية كبيرة تشبه الطناجر الكبيرة تسمى **(الجُونة)** وهي باللغة الفصيحة **(الجؤنة)**، لتحمل فيها الحبوب بأنواعها والزيتون والطحين وحتى التراب، انظر الصورة رقم **(٦):**

الصورة (٦): الجونة

ويُصنع منها كذلك **(القُبْعَة)** - وهي تشبه الجونة ولكنها أصغر منها - بمختلف الأحجام والأشكال المزخرفة بالرسومات الرائعة، والقُبْعَة خفيفة الوزن ومتينة جداً، فلو سقطت لا تنكسر لأنها مصنوعة من القَصَل؛ أي القشّ، انظر الصورة رقم **(٧).**

الصورة (٧): القُّبعة

والقُبْعة والجُونة لا تتأثران بالماء، ولا تؤذيهما إلا النار، وقد كانت النساء يضعنَ في القبعة بيض دجاجاتهنَّ أو الزبيب أو التين اليابس أو التمر أو الخضار والفاكهة اللتَين يجنينَها من الكروم مثل: البندورة والخيار والكوسا والقثّاء والباميا واللوبياء والعُصْفُر وغير ذلك كثير.

يبني الفلاح عريشةً قبل البدء بدراسة قمحه في إحدى زوايا بيدره؛ والعريشة هي عبارة عن أربعة أعمدة من الخشب توضع لها عوارض من الخشب بدلاً من الجسور في المنازل ثم تغطّى بأغصان الأشجار أو القصب لتكون سقفاً له ولمن يعمل معه، فتقيهم من حرارة الشمس، ومن الفلاحين مَن يجعلها طابقين لتكون مكاناً للاستراحة والنوم أو القيلولة، وقد يبيت بعض الناس فيها ليلاً لحراسة أرزاقهم، وفي أرض العريشة يوجد حصيرة وفِراش، وفي إحدى زواياها توجد حفرة توضع فيها جرَّة من الفخار مُلَبَّسة بـ (الخيش / أو الكتّان) يوضع فيها ماء الشرب ليبقى بارداً، إذْ لم يكن يوجد ثلاجات في تلك الأيام، وتحوي العريشة على سطل فيه ماء للوضوء أو غسل الوجه واليدين، وكان بعض الفلاحين من أصحاب الأرض يضعون فيها إبريق شاي وكؤوساً و(البابور) وهو نوع من المواقد يعمل بوساطة ضخِّ الكاز، من أجل صنع الشاي له وللعمال الذين يعملون في أرضه أو لضيوفه الذين يزورونه في البيدر، وكان من عادة الفلاح أن يزرع قطعة من الأرض ذات مساحة محدّدة تسمّى الـ (حاكورة) في طرف من أطراف البيدر، وأهم ما يزرع فيها البطيخ الذي سينضج في أثناء دراسة القمح، وكذلك يزرع فيها البندورة والقِثَّاء والذُّرَة الصفراء، وجميعها تنضج في

وقتِ دراسة القمح أيضاً، وغالباً ما يكون سياج البيدر أو أحد أطرافه مزروعاً بالصبّار، وكانوا حينما يجلسون مساءً بعد انتهاء العمل يقطفون البطيخ ليتناولوه معاً في ظلّ العريشة، وهم يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون ويتمازحون، وكنت أنا الصغير أرى البِشْرَ والفرح في عيونهم وعلى وجوههم، وقد نسوا تعبهم خلال يوم عملهم.

كانت سنابل القمح تُدرَس بوساطة اللوح المسمّى **(النَّورَج)**، وهو عبارة عن قطعتين من الخشب، مجموعتين بعضهما إلى بعض بعارضتَين خشبيَّـتَين؛ واحدة من الأمام وأخرى من الخلف، وكان اللوح من الأسفل فيه ثقوب بهيئة مستديرة لتوضع فيها قطع من الحجارة بحجم الثقب، لتساعد في تقطيع السنابل القمح وفرمه ليصبح تبناً، ويُربط باللوح عصوان طويلان يصلان إلى عنق الدابة التي تجرّ اللوح، ويركَّب فوق اللوح ولد أو بنت أو رجل في أثناء دراسة القمح، وكانت طريقة دراسة القمح أن تُرمى طبقة من السنابل بشكل دائري حول كديس القمح الذي يسمّى **(الطَّرْحَة)**، ويركَّب اللوح ويُثبَّت على رقبة الدابة التي ستجرُّه، سواء أكانت حصاناً أم بغلاً، ويركب الشخص الذي سيوجه الدابة في سيرها بوساطة حبل مربوط عند طرفَي رأسها مثبَّتة في رسنها يسمّى **(الرياح)**، ويُقال للشخص الذي يركَّب على اللوح: **(الدرّاس)**، وبعضهم يسميه **(الداروس)**، وغالباً ما يكون ولداً صغيراً في الصفوف الأخيرة من المرحلة الابتدائية أو في أول المرحلة الإعدادية، وتبقى الدابّة تجر اللوح والدرّاس أو الداروس الذي يوجهّها إلى وقت العصر، وهكذا كل يوم ... وكلما دُرِست طرحة تُرمى

طرحة أخرى من السنابل فوقها إلى أن يتم دَرْسُ القمح كلّه وينتهي الكديس ويصبح كل الكديس الذي كان قبَّةً قمحاً مكسَّراً ، لكنه خشن قليلاً، ومن ثمَّ تبدأ مرحلة تنعيمه بشكل أكبر، وكلما انتهى تنعيم طرحة من القمح الخشن تُجمع في الوسط، فيكون القمح حينئذ ناعماً جاهزاً للتذرية التي يُفصَل فيها التبن عن القمح، انظر الصورة رقم **(٨):**

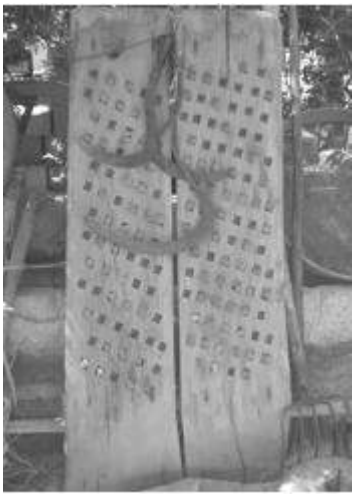

الصورة (٨): النورج

يختار الفلاح وقت تذرية القمح بعد الظهر حينما تهبُّ رياحٌ متوسطة السرعة، لتساعد على تذرية القمح، وتُستعمل لتذرية القمح **(المِذْراة)**، وهي تشبه كفَّ الإنسان، من حيث إنها عصا طويلة في رأسها خمس أصابع ينثر بوساطتها الفلاح القمح المدروس في الهواء فيطير التبن جانباً، ويسقط مبتعداً عن حبّات القمح، وتسقط حبات القمح أسفلها، لأنها أثقل من التبن، وبهذه الطريقة تُفصل حبات القمح عن التّبن، انظر الصورة رقم **(٩).**

الصورة (٩): المذارة

وبعد ذلك يُنقل القمح إلى البيوت ليُخَزَّن في **(الكواير)** وهي جمع **(كوارة)**، والكوارة هي مخزن للقمح يحفظه ويحميه من ظروف الطبيعة، وهي تشبه البرميل الكبير، مصنوعة من الطين، لها فتحة من وسط واجهتها الأمامية وأسفلها، فتكون بحجم قبضة اليد تُسَدُّ بقطعة قماش، وهي مفتوحة من الأعلى، وتُغطّى بالجُونة أو بطبق القش الذي صنعته المرأة سابقاً، انظر الصورة رقم **(١٠)**:

الصورة (١٠): الكوارة

في أثناء تعبئة القمح في أكياس في البيدر، لنقله إلى البيوت كنا نحن الأولاد من أفراد الأسرة والأقارب نتجمَّع للحصول على كمية من القمح تسمّى **(**البْراكَة**)**، فكنا نذهب ونبيعها لإحدى الدكاكين ثم نشتري بثمنها أو بشيء من ثمنها التمر أو المعمول أو الهريسة أو الملبَّس، وبعد أن ينتهي الفلاح من نقل قمحه يتفرَّغ لتعبئة التين الثمين في أكياس كبيرة تسمّى الواحدة منها **(**الخيشة**)**، ثم يُحمل على ظهور الدواب إلى مكان تخزينه لفصل الشتاء يسمّى **(**التَّبّان**)** الذي له فتحة في السقف تسمّى **(**الرُّوزَنَة**)** يفرِّغ من خلالها التبن، وبعد أن ينتهي الفلاح من جمع تبنه في التبّان يَسُدُّ تلك الفتحة لحماية التبن من الأمطار في الشتاء، وقد كنتُ أنا وأصحابي الصغار ممن هم في مثل عمري نصعد ظهر الأسطحة التي فيها تبّانات، وقد امتلأت بالتبن إلى مستوى قريب من السطح، فنركض مسرعين، ثم نقفز من الرّوزنة لنسقط على التبن، ثم نخرج منها بسَحْب بعضنا بعضاً، وكنا فرحين مسرورين نضحك كثيراً**.** يا الله ما أحلى تلك الأيام وما أجملها**!**

كان الفلاح يستعمل التبّان كمخزن يحفظ فيه البطيخ **-** إذا كان لديه فضْلةٌ منه **-** وكذلك الموز الأخضر الذي لم ينضج بعد، من التلف**.**

وبعد الانتهاء من تعبئة القمح وإيصاله إلى البيوت ووضعه في الكوايز، وتعبئة التبن ونقله من البيدر ووضعه في التبّان، تسلق النسوة في كل بيت القمح كلّه أو كمية منه حسب حاجة أهل الدار إلى الكمية المناسبة للحصول منها على البرغل، إذ يوضع القمح في نصف برميل مضافاً إليه الماء على النار التي مصدرها الحطب، وكلما أصبحت كمية القمح التي في البرميل سليقاً تُنْشَل وتُنْشَر على السطح، وتوضع كمية أخرى بدلاً منها،

وهكذا حتى يتمَّ سلق الكمية المطلوبة كلها، وبعد أن يجفَّ القمح المسلوق يُعبّأ في أكياس ويُحمل إلى الطاحون ليُصنع منه البرغل، ومن ثم تَصنع منه النسوة طبخة معروفة في الريف هي **(المجدّرة)**، كما تعمل النسوة بالتعاون مع الرجال على صنع **(الفريكة)** مسبقاً، إذ تُحرق سنابل القمح وهي خضراء قبل أن تجف إلى أن تتصلب حبات القمح فيه، فتشويها بالنار، ثم تُفْرَك السنابل المحروقة فيُتحصّل منها على **(الفريكة)** البلدية لذيذة المذاق، طيّبة الطعم، التي لا مثيل لها في هذه الأيام أبداً.

هذا غيض من فيض مما كان يجري في أيام الحصاد ودراسة القمح، إذ كان الفلاح حينذاك يشعر بالراحة لأنه قد أمَّن قوت عياله مدَّةَ سنة كاملة من طحين وبرغل وعدس وحمص وفول وغيرها، كما أنه قد خزَّن البذار للسنة القادمة، وكذلك خزَّن التبن لمواشيه في الشتاء، إذ تكثر الأمطار وتَقِلُّ المراعي فتبقى الأبقار في حظائرها أياماً كثيرة، وفي نهاية موسم البيادر كان الأولاد الصغار مثلي يفرحون لأن الأهل لم يعودوا بحاجة ماسّة إلى مساعدتهم في العمل، فتكون لديهم فرصة لممارسة الصيد بـ**(الفخ)**، انظر الصورة رقم **(١١)**.

الصورة (١١): فخ لصيد العصافير

إذ تكون حبّات القمح المتناثرة في أرض البيدر وفيرة، ووفيرة كذلك في الحقول التي كانت مزروعة بالذرة البيضاء والتي قُطفت وتناثرت بعض حباتها هنا وهناك، كما أن هذا الوقت هو بداية الخريف وهو موعد قدوم بعض الأنواع من الطيور المهاجرة إلى منطقتنا التي من ضمنها بلدتنا **(فيق)**، وهذا الوضع وهذه الظروف كانت مؤذنة ببداية الصيد بالفخ، وكي نصطاد لا بدَّ أولاً من الحصول على الفخ الجيد والمناسب، وقد كان ثمن الفخ كبيراً في تلك الأيام بالنسبة إلينا نحن الصغار، وكان صانع الفِخاخ الوحيد في حارتنا هو **(عاطف عبد الكريم الجبر)**، وكان عاطف وأهله يقطنون في بيت حديث الطِّراز مبنيٍّ من الإسمنت، يقع في أول طريق قرية **(سكوفيا)** المجاورة لـــ **(فيق)** من جهة الشرق، وكان منزلهم يبعد عن كَرْم زيتون لنا نحو مئة متر، وكنت وأنا ذاهبٌ إلى كرمنا ذاك أُعَرِّج على بيت **(أبي عاطف)** صانع الفخاخ، لأن أخاه الأصغر منه سناً **(محمد سعيد الجبر)** كان صديقي، إذ كنا ندرس في صف واحد معاً في المرحلة الابتدائية، أما عاطف فكان في المرحلة الإعدادية، ففي أثناء زيارتي لهم كنت أشاهد كيف يصنع عاطف الجبر تلك الفخاخ التي كان يبيع الواحد منها بثلاثين قرشاً، وكان هذا المبلغ كبيراً في تلك الأيام على طفل مثلي، فاقتبست منه أصول الصنعة وصرت أصنع فِخاخي بنفسي بشكل ممتاز، بل صرت أصنع أفخاخاً كما أريد؛ بالحجم الذي أريد والشكل الذي أريد والمتانة التي أريدها، وكنت أذهب إلى البيادر أو إلى السهل أو إلى كروم الزيتون حول القرية، وأوفَّق دائماً في الصيد، فكنت أصيد عدداً لا بأس به من العصافير، ثم أنظّفها وأقطِّعها وأفرم البصل وأُضيف إليه السمن العربي أو الزيت البلدي، وأصنع طبقاً

ممتازاً شهيّاً من لحم تلك العصافير، ثم أدعو أمي رحمها الله وإخوتي الصغار لتناول الغداء معي، وكان هذا يحدث بصورة يومية تقريباً مادامت المدرسة لم تفتح أبوابها، ولأيام صيد العصافير بالفخ في نفسي ذكريات لا تُنسى ولا تُمحى من ذاكرتي، فهي ما تنفكُّ تذكِّرني بأيام طفولتنا البريئة الصافية، ولكنها للأسف صارت ذكريات مؤلمة حزينة بعدما احتُلَّت أرضنا وانقطع كل ذلك النشاط من حياتنا جميعاً كباراً وصغاراً، إذ أُجبرنا على ترك أرضنا وحقولنا وقمحنا وبيادرنا وفخاخنا، بسبب الصهاينة المحتلين المدعومين من قوى الشر والبغي في هذا العالم الظالم، ولكنني أقول: لا بدَّ أن تعود أرضنا إلينا، بل يجب أن تعود ويعود الحق إلى أصحابه مهما طال الزمن، شاء من شاء وأبى من أبى، فنحن أمة لا تموت، وإني أتحداكَ باسم بلادي يا فناء.

(تهجيرٌ قَسْريّ)

اعتدت العصابات الصهيونية في عام ١٩٦٧ اعتداءات كثيرة على أراضي الجمهورية العربية السورية، ولا سيما على طول الجبهة مع فلسطين المحتلة، وكانت تلك العصابات تفعل هذا على مرأى ومسمع من دول العالم أجمع دون رادع ودون أن تقيم أي وزن أو قيمة لمجلس الأمن أو للأمم المتحدة.

بدأت (إسرائيل) اعتداءاتها على أرضنا منذ إعلان إنشائها المزعوم عام ١٩٤٨ واشتدَّ أكثر في عام ١٩٦٧ وكانت تهدف من وراء هذه الاعتداءات إلى ترويع السكان أولاً، وإتلاف مزروعاتهم ثانياً، وتخريب تحصينات الجيش العربي السوري وتدمير قدراته التسليحية وإلحاق الخسائر بصفوف جنوده ثالثاً، ولطالما افتعلت (إسرائيل) الأعذار الواهية للقيام بالعدوان المباشر وغير المباشر على مناطقنا الحدودية لتحقيق أطماعها التوسُّعية.

أذكر، وأنا الولد الصغير أن الجنود الصهاينة كانوا في كل عام ينتظرون الصيف وحينما يتأكدون أن موعد حصاد القمح قد حان، يفتعلون الحرائق في مزروعات أهل الجولان بحجة حرق الأعشاب اليابسة، وكانوا يتخيَّرون الوقت وسرعة الرياح واتجاهها، ثم يفعلون فعلتهم الحمقاء البشعة.

لقد رأيت بأمِّ عيني كيف أحرق الجنود الصهاينة (وادي سُوسِيَة) الذي يقع جنوب غرب بلدة فيق بنحو ثلاثة كيلو مترات، وكان ذلك الوادي كله مزروعاً بالقمح، وقد حان حصاده، وقبل موعد حصاده بيومين أحرقوه، إذْ شبَّت فيه النيران، وكانت سرعة الرياح كبيرة، مما زاد الطين بلّة.

رأى أهل بلدتي واديهم يحترق فهبُّوا هبَّة رجل واحد، ولكن لم يكن باليد حيلة، فقد كانت الرياح تهبُّ من الغرب إلى الشرق، وكانت ألسنة النيران تشوي الوجوه من بعيد، وكان الناس من الشرق ليس لهم أيُّ طريقٍ إلى الغرب، أي إنه لم يكن لهم طريق من خلف النيران كي يستطيعوا إطفاءها، أو حتى ليشرعوا في ذلك.

كانت النيران تحرق حقول القمح في الوادي وتهاجم الناس في طريقها، فيتراجعون مكرَهين. كان كلٌّ من حضر إلى (وادي سوسية) من أهل بلدتي يحمل غصن شجرة أخضر أو أغصاناً من شجر الدُّفلى، وقد كنت معهم وبينهم، وكلُّ واحد منهم يقول لي: ابتعد يا ولدي كي لا تحترق. كان أهل بلدتي الشجعان ينتظرون حتى تمتد النار وتحرق ما أمامهم وتتابع مسيرها إلى الأمام، فيُكَوِّن ما احترق أمامهم طريقاً لهم للالتفاف على النار من الخلف وملاحقتها ومحاولة إطفائها. لقد كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم: (يا الله، يا رجال ... يا الله يا نشامى ... يا الله يا أبناء ذيبة)، وكان بعضهم يلاحق النار وبعضم الآخر يأتي بأغصان الأشجار الخضراء وأغصان الدفلى، وكانت المسافة بين مكان الحريق والمناطق التي فيها شجر أخضر بعيدة تصل إلى أكثر من كيلو متر، ولقد رأيت أحد الشبان الشجعان يُحضر حصاناً، فكان يُحضر الأغصان بسرعة على ظهر الحصان ويضعها أمامه، فيرمي بها قرب الذين يُسهمون في إطفاء الحريق، ويعود مسرعاً ليجلب أغصاناً أخرى، فاعترضتُ طريقَه؛ فقال لي: (ابعد يا ولد، ماني فاظي لك)، فقلت له: لماذا لا تجعل عدداً من الشبان عند الأشجار، ليكسروا الأغصان ويجمعوها لك، وعدداً قرب النار يناولون الأغصان للشباب الذين يسهمون في إطفاء الحريق، فتكون مهمّتك نقل الأغصان

وإيصالها إليهم فحسب، فلا تنزل عن ظهر الحصان؛ فقال لي: معك حق. من أين جئتَ بهذه الأفكار يا ولد، فنادى فوراً على شابَّين وأركبهما خلفه على ظهر الحصان وذهب بهم إلى حيث الأشجار وأنزلهما هناك، وبسرعة كسروا بعض الأغصان، فحَمَلها أمامه إلى حيث الحريق ورماها قربهم وطلب من بعضهم توزيعها على المشاركين في إطفاء الحريق، فصار يذهب بسرعة ويأتي بسرعة أكبر ... وهكذا استطاع الرجال في بلدتي السيطرة على الحريق وإنقاذ القسم الأكبر من الأرض المزروعة بالقمح، قبل حلول المساء، وبهذا زال خوف الناس من أن يمتد الحريق بفعل الرياح إلى وادي الزيتون فيحرقه كله ويحرق أراضٍ أخرى، وخاب ما سعى إليه جنود الصهاينة الأشرار وخاب رجاؤهم في حرق محصول القمح في وادي سوسية.

في ذلك اليوم كان موعد زفاف ابن عمي الأكبر (يحيى مقبل) على ابنة خاله (وردة الرحّال) رحمهم الله جميعاً. كان حريق وادي سوسية في يوم جمعة، وصار حديث الناس طوال أيام الحصاد.

لقد ذهب كل من له أرض في اليوم التالي منذ الصباح الباكر لحصاد محصول القمح هناك، وخلال ثلاثة أيام كان وادي سوسية خالياً من سنابل القمح نهائياً ترعى فيه قطعان الأغنام. إن الغريب في الأمر أن الحريق بدأ من أول الحقول المحاذية لحقل الألغام الذي بيننا وبين الصهاينة وكان يسمّى بالمنطقة المحرَّمة؛ وهذا دليل على أن الحريق كان مقصوداً وبفعل فاعل، إذ كانوا يرجون منه حرق القمح في وادي (سوسية) كله وحرق وادي زيتون عشيرة (الحجايرة) ووادي زيتون عشيرة (الذيابات)، وبفضل من الله سبحانه وبهمة الرجال النشامى خاب رجاؤهم ورُدَّ كيدهم إلى نحرهم. وواظبت العصابات الصهيونية على اعتداءاتها على أرضنا الحبيبة بشكل شبه

يومي عام ١٩٦٧ إلى أن نفَّذت أخيراً عدوان الخامس من حزيران الذي احتلت فيه أرض الجولان الحبيب ومنه طبعاً بلدة فيق.

خرج السكان من بلدتي لا يلوون على شيء، ولم يكن أمامهم إلا وادي اليرموك متّجهين إلى الأردن، وبعد الإقامة مدّةً قصيرة هناك، صار بعض الناس يذهبون ليلاً إلى قراهم وإلى بيوتهم لجلب بعض الأثاث والملابس أو بعض الأوراق الثبوتية وغيرها.

كانت قرى الجولان كلها ليلاً خالية من الجنود الصهاينة، ولا أدري أين كانوا يختفون في الليل! ولكنهم في النهار يظهرون، لذلك كان الناس يذهبون إلى قراهم وبيوتهم ليلاً لجلب أشياء تخصُّهم، إذ يكونون في أمسِّ الحاجة إليها، ومن الذين ذهبوا إلى بلدتي (فيق) ابن عم لي اسمه (عيسى عبد الله الذيب - أبو بسام)؛ ذهب من الأردن ليلاً متَّجهاً إلى بلدته، ومن ثم إلى بيته، ومعه حمار ليحمل عليه بعض الحاجات، وحينما وصل إلى بيته بدأ بتفقده، وبحث عما ينوي أن يحمله معه على ذلك الحمار، وحينما حزم أمره وهَمَّ بالعودة عرف وأيقن أن الوقت قد سُرق منه وأن الصباح قد داهمه، وأنه لن يستطيع التحرك الآن، وعليه انتظار حلول الليل التالي للتحرك والعودة إلى الأردن، لأن عائلته تقيم هناك إقامةً مؤقتة قصيرة، فربطَ الحمار في الحظيرة ووضع له كمية كبيرة من القمح وقال له: كُلْ أيها الحمار لأنه يبدو أن هذا الرزق كله سيذهب إلى الصهاينة، فكُلْ حتى تشبع، وما إن انتهى من ذلك حتى بدأت العصفورة تزقزق مؤذنة بحلول الصباح، ثم بدأ يفكر أين يختبئ إلى أن يحين المساء ويأتي الليل، فبدأ يدخل إلى كل خفايا بيته وبيوت إخوته كلهم، وكلما دخل مكاناً وظنَّه آمناً فيجلس فيه قليلاً، فيداهمه

الخوف ويقول لنفسه: هذا المكان غير آمن، وإذا حضر الصهاينة الأشرار فسوف يُكتشف أمري ويجدونني، ثم يلقون القبض عليّ ويأخذونني أسيراً، وقد يقتلونني، فجعل يغيِّر مكانه إلى مكان آخر، فيحصل معه الشيء نفسه، إذْ تراوده المخاوف نفسها في كل مرة، وهكذا دواليك... إلى أن طلعت الشمس وارتفعت في كبد السماء، وحينئذ بدأ يتوتر أكثر فأكثر، وبعد جهد جهيد ووقت مديد، توصل إلى فكرة... ألَا وهي أن يصعد السُّلّم المسنود إلى سطح إحدى غرف البيت، فصعد السطح، وكان فوق السطح كومة من محصول الجلبانة، زحف إليها زحفاً، واستقرَّ في وسطها، ومن ثم صنع مكاناً له يجلس فيه يشبه عشَّ الطائر، بحيث يستطيع من خلاله أن يراقب كل حركة في جميع الاتجاهات، وجلس خائفاً يترقَّب، وكانت الدجاجات قد رأته، فبدأت تحاول صعود السلم خلفه، فكان يقول لها: (كِش، كِش) بصوت خفيض، لأنه أحسَّ بحركة ودبيب أقدام بعيدة، ولكنها مسموعة. عرف (أبو بسام) ماذا تريد منه الدجاجات... كانت تريد منه أن يقدِّم لها العلف والماء كما كان يقدِّمه لها في الأيام الخوالي.

لقد خانت الذاكرة والفطنة (أبا بسام)، إذ ترك علامات تدل على وجوده في الدار، كما أن تأخره في العودة وتفقد الأشياء في بيته وفي بيوت إخوته وجيرانه أيضاً، هو الذي أوصله لما هو فيه من خطر؛ فالخطأ الأول الذي ارتكبه (أبو بسام) هو إدخال الحمار إلى الحظيرة وربطه جيداً، وهذا أكبر دليل على وجود إنسان هنا، ثم إنه وضع له كمية كبيرة من القمح في الـمَعْلَف، وهذا يقود إلى التساؤل والشك، بل يصل إلى درجة التأكُّد من أنَّ صاحب هذا الحمار هو مَن وَضَعَ له حبات القمح في المعلف. دعكَ من كل

هذا، فإنَّ ربْط الحمار ووضْع كمية لا بأس بها من القمح في المعلف يدلّان على أنهما حدثا بفعل فاعل، ولكنهما لا يدلّان على وجود الشخص الذي فعل ذلك هنا، فقد يكون فعل ذلك وذهب إلى أيّ مكان آخر بعيداً عن الحمار وعن الدار، لكن الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو بسام هو صعوده إلى السطح، فمن المتوقَّع أن الصهاينة المحتلين الأشرار سوف يصعدون إلى أعلى سطح في القرية ويراقبون المداخل والمخارج والأسطحة بالمنظار المكبِّر والمقرِّب، ولا بدَّ أنهم سيصعدون مئذنة المسجد أو خزّان الماء أو كليهما معاً، أما الخطأ الفادح الذي وقع فيه أبو بسام فهو تركه للسلَّم الذي صعد عليه في مكانه، وكان مكان السلم جانب باب المضافة مركوناً إلى السطح، فكلُّ مَن يأتي إلى الدار سوف يلفت السّلّم انتباهه.

كان صوت دبيب الأقدام ووقع الخطا الذي كان يسمعه أبو بسام يقترب شيئاً فشيئاً، وصار يسمع معه صوت ضجيج يعلو شيئاً فشيئاً، ثم اقترب الدبيب وارتفع الضجيج، وإذا بالصهاينة من المدنيين قد جاؤوا في مجموعات؛ رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، ليشاهدوا بأم أعينهم ما احتلَّه جيشهم من بلدات وقرى، وليشاهدوا أنها خالية من سكانها وأنَّ أصحابها قد أُجبروا على الهرب، فتركوها خالية خاوية.

كان أبو بسام يراهم حينما دخلوا إلى الحي الذي فيه دارهم، إذ كانوا يدخلون إلى كل بيت ويشتمون أهله ويبصقون عليهم، وقد كان منهم من يتكلم العربية، وبعد أن دخلوا إلى كل بيوت الحي ودنَّسوها، جاء دور بيت أبي بسام (عيسى عبد الله الذيب)، فدخلوا أرض الدار وكان أول ما يواجههم منها المضافة، إذ كان من عادة الناس في تلك الأيام أن تكون غرفة المضافة أول الغرف في البيت وتكون في واجهته، والمضافة تشبه ما يُطلق عليه اليوم

(غرفة الضيوف)، إذن، دخلوا المضافة كلهم وكانوا مجموعة من الرجال والنساء من مختلف الأعمار، يتجاوزون العشرة، وشغَّل أحد أفراد هذه المجموعة مُسجِّلاً كان يحمله في يده، ثم بدؤوا يرقصون ويغنون، وأبو بسام فوق السطح، لكن أحد أفراد المجموعة ذهب يتفقد أرض الدار والغرف الأخرى والحظائر وحتى خُمَّ الدجاج، وأبو بسام يراه من خلال كومة من قشّ الـجُلبانة فوق السطح، ولكنه أخيراً دخل الحظيرة، فوجد الحمار، وكان باب الحظيرة واسعاً، وكان أبو بسام يستطيع أن يراه بوضوح، فوقف عند الحمار وتلمَّس قيده وحرَّك القمح في معلفه، ولسان حاله يقول: لا بدَّ من وجود عربي هنا. وفهم أبو بسام من تصرفات ذلك الصهيوني وتحركاته وإشاراته أنه يشكّ في شيء، وأنه ربما اكتشف أمره.

كان ذلك الصهيوني ضخماً طويلاً، مفتول العضلات، أشقر اللون يلبس قبّعةً على رأسه **(برنيطة)** ويضع على خصره مسدساً، ووفقاً لهذه المواصفات يتبيّن أنه رجل أمن يرافق هذه المجموعة، لأن المجموعة كلها ظلَّت داخل مضافة أبي بسام يغنّون ويرقصون، وهذا الرجل لم يدخل معهم، بل آثر أن يتفقد المكان قبل أن ينضمَّ إليهم.

بدأ ذلك الرجل يبحث في كل الدار ويدقِّق في البحث، لكنه لم يتوصَّل إلى شيء، فعاد إلى الحمار وفكَّ رباطه، وتركه يأكل القمح الموجود في المعلف، ثم أراد أن يدخل المضافة، حيث المجموعة يرقصون ويغنون. وضع قدماً داخل المضافة ولم يُدخِل الأخرى، لأن كتفه قد ارتطم بالسلم المسنود إلى السطح، فرجع خطوة إلى الوراء ونظر إلى السلم من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى عدة مرات، ثم قرر الصعود إلى السطح بوساطة هذا السلم ليرى فيما إذا كان هناك ما يريب. كل هذا يحدث وأبو

بسام يترقَّب وينتظر الخطوة الآتية من هذا الصهيوني البغيض المحتلّ، وهو يرتجف من الخوف لـمَا رأى من البنية الجسدية القوية لهذا الرجل، إذ كان يبدو له مصارعاً أو بطلاً في المصارعة، فهو - كما أخبرني - لم يكن خائفاً من مسدسه، بل من وجوده فوق السطح، فلا حجر ولا عصا يقاوم بها أبو بسام عدوَّه المحتلّ، ولهذا كانت بنية هذا الرجل البدنية فحسب هي أكثر ما يخيفه، وما إن وضع الرجل الصهيوني البغيض أوّل قدم له على السلم حتى تأكَّد أبو بسام من أنه سيصعد السطح لا محالة، وما إن حرَّك قدمه الأخرى على السلم حتى انجرف أبو بسام عن السطح ساقطاً خلف جدار المضافة على الأرض، وقد صادف أن يسقط على حجر بحجم كرة القدم، فارتطم به في أسفل خاصرته، وقد قال لي يومَ حدّثني عن هذه الواقعة إنه قد أُغمي عليه ولم يعد يرى، وإنه قد فَقَدَ الوعي عدَّة دقائق، ولكن من حسن حظه أن الصهاينة الذين في داخل المضافة كانوا يرقصون ويغنّون في حالة من الطرب والهرج والمرج، فلم يلحظوا سقوطه.

سقط أبو بسام تحت النافذة مباشرةً، وهي ليست بالمرتفعة، ولو نظر أحدهم من داخل المضافة لرآه، لكن الله أعمى قلوبهم وأبصارهم، كما أن ذلك الصهيوني الذي صعد السطح فتَّش بين أكوام القش فلم يجد شيئاً ولم يقترب من حافة السطح كثيراً. نظر إلى الشارع وإلى كروم الزيتون حول البيت ولم ينظر إلى الأسفل أيضاً. لقد كان أبو بسام تحته مباشرةً مغمًى عليه وفاقداً للوعي من دون أي حراك.

بعد دقائق أفاق أبو بسام فابتعد زحفاً عن قُبالة النافذة قليلاً، لأنه لو وقف في مكان سقوطه لرأوه، وبعد أن زحف قليلاً وَقَفَ وأطلق العنان لساقَيه حافي القدمين متّجهاً صوب وادي الزيتون الذي يقع تحت دارنا،

وقد أحسَّ به الرجل الذي يحمل المسدس ويرافق المجموعة، لأنه ما يزال واقفاً أمام باب المضافة، وكان باب الدار مفتوحاً، بل هو مفتوح أصلاً دائماً، فلحق به مسرعاً مشهراً مسدسه، وهو يردِّد بلهجته: "وقِّفْ عَرَبْ ... وقِّفْ عَرَبْ" بصوت عالٍ، وابتدأت المطاردة.

كان لا بد لأبي بسام من أن يقطع الشارع الرئيس في بلدتي فيق، إذ إنه يوجد هناك تجمُّع للحافلات التي أقلَّت هؤلاء الأنجاس إلى بلدتنا، وكان عند الحافلات عدد من الجنود الصهاينة المسلّحين يحرسونها، وكان الرجل الذي اكتشف أمر أبي بسام يجري خلفه وينادي بالعبرية لينبه الجنود حرّاس الحافلات، مما جعلهم يتأهَّبون وينظرون في كل الاتجاهات، ولـمّا قطع أبو بسام الشارع صاحوا عليه جميعاً كي يتوقف، لكنه لم يقف، فأطلق أحدهم النار عليه فلم يصبه، وحينما رأى أنه لم يسقط جرى خلفه بسرعة كبيرة، لكنَّ أبا بسام كان قد وصل إلى شفا عَين القرية تحت دارنا مباشرة، فقفز إلى الأسفل في مكان كانت فيه نساء الحي يرمينَ رماد التَّنور، وهو يسمّى لدينا (فرن الزِّبْلَة)؛ أي الذي يَسْخُنُ باحتراق الزِّبْلِ حوله وفوقه، وكانت النساء في منطقتي كلها يستعملنَه لصنع الخبز وغيره من الأطعمة التي يحتاج إنضاجها إلى درجة حرارة عالية، فكان في كلّ بيت (فرن زِبْلة)، لأن السكان الأصليين لا يشترون الخبز من الفرن، بل يصنعونه بأيديهم في بيوتهم.

حينما قفز أبو بسام إلى ذلك المكان تعالى الرماد الكثيف الذي حجب الرؤية عن الجندي المحتل الذي كان يلاحقه، وما إن انقشع غبار الرماد حتى كان أبو بسام قد دخل بين أغصان شجر (العُلَّيق) الذي في مجرى عين القرية، وهو علّيق كثيف جداً ومتشابك بعضه ببعض، وسار أبو بسام بعيداً، وهو حافي القدمين إلى مسافة أكثر من كيلو متر تقريباً، وكان الجندي

يطلق النار عشوائياً، وحينما لم يجد جدوى من ذلك تركه وتراجع، ووصل أبو بسام إلى مكان آمن بين أغصان شجر العلّيق فيه مكان للراحة وصخور تحميه وماء زلال يشرب منه، فجلس واستسلم لتعبه وأوجاعه.

لقد مزَّق شجر العليق ثيابه كما مزَّق جلده من كل ناحية، وأما جنبه الأيمن فحينما سقط من على السطح فوق الصخرة فقد تعرَّض لأذى كبير فكان يؤلمه بشدة. جلس أبو بسام، وهو على هذه الحال، ليرتاح وينتظر قدوم الليل ليتابع مسيره. بقي مستيقظاً حتى العصر، ولـمّا أحسَّ بالأمان غشيه النعاس فنام في مكانه. استيقظ ليلاً وكان القمر ساطعاً ولم يدرِ كم الساعة حينها، وكان لا يشدُّ انتباهه إلا أصوات بنات آوى (الواويات) اللواتي يتحركنَ في المكان، فقد كان شجر العلّيق هذا حول الماء مرتعاً لها ومكاناً مناسباً لعيشها ومخبأً ممتازاً لها ولصغارها. آثر أبو بسام أن يستمر في النوم، فقد كان منهكاً جداً والنعاس يغالبه، فغسل يديه ورجليه وشرب بعض الماء ثم نام ثانية، ولأن الذين ذهبوا معه إلى البلدة قد عادوا في الليلة السابقة إلى مكان انطلاقهم في الأردن، فقد انشغل باله على أهله، ولا سيما أخيه (أحمد)، وهو أصغر منه سنّاً، وكنا نلقِّبُه بـ (أبي حديد) حينما كان أعزب، فلما تزوج صرنا نناديه (أبو أيمن). لم يحتمل أبو أيمن غياب أخيه فقرَّر أن يذهب إلى البلدة للبحث عنه، فاستأجر رجلاً وحماراً ونزل إلى وادي اليرموك، وقطع نهر اليرموك ليلاً كالعادة برفقة الرجل الذي استأجره مصطحبين الحمار، ووصلا إلى بيته في البلدة. بحث (أحمد) عن أخيه أبي بسام ولم يجده، بل وجد الحمار الذي كان معه، فأخذ حماره وحمار أخيه ومعه الرجل الـمُستأجَر ونزل إلى وادي زيتون (الحجايرة)، متّجهاً إلى عين (هديش)، وعلى ما يبدو أنَّ أبا بسام

كان قد أخبر أخاه **(أحمد)** بخطَّته وبمسار الطريق الذي سوف يسلكه ذهاباً وإياباً، فلذلك اتجه إلى هناك.

استيقظ أبو بسام في الليلة التالية، فغسل يديه ورجليه ووجهه وشرب الماء، ثم تابع السير متجهاً هو أيضاً إلى عين **(هديش)** حافي القدمين. توقف قبل أن يصل إلى العين بقليل، إذ سمع صوت رجال يتشاجرون، وإذا بأخيه أحمد - وقد عرفه من صوته وهيئته لأن الظلام دامس، وليس من ضوء سوى ضوء القمر - يتشاجر مع رجل عند العين. عرف أبو بسام من سياق تشاجرهما أن أخاه استأجر هذا الرجل، وهو يريد أجرته فوراً قبل أن يصلا إلى برِّ الأمان في الأراضي الأردنية، حينئذ تشجَّع ونادى على أخيه **(أحمد)**، وتقدَّم صارخاً بالرجل الآخر الذي كان يمسك بثياب أخيه قائلاً له: هيا، اتركه، ماذا تريد منه؟! وحينها فهم أبو بسام القصة وطمأن الرجل الأجير بأنه سيدفع له الأجرة حينما يصلون إلى الأراضي الأردنية.

سأل **(أحمد)** أخاه **(عيسى / أبا بسام)** ماذا جرى لك؟ لماذا تأخرت؟ ولماذا أنت حافي القدمين؟ ومن مزَّق ثيابك؟ فحكى **(أبو بسام)** لأخيه **(أحمد)** ما جرى معه، ثم قال أحمد لأخيه: كيف تستطيع المشي وأنت حافي القدمين وطريقنا طويلة ووعرة؟! إنَّ هذا صعبٌ عليك. انتظرني أنت هنا، أنت والأخ **(أبو إبراهيم)**، وهو الرجل الذي استأجره **(أحمد)** وكان أردني الجنسية، وأنا سأذهب إلى دارنا في القرية لأحضر لك حذاءً وأعود بسرعة. إنني قبل قليل حينما كنت في الدار حملته ثم تركته عند باب المضافة. سأذهب وأحضره لك، لا تَـخَفْ عليَّ أبداً.

ذهب **(أحمد)** وبلمح البصر وصل إلى الدار وأحضر الحذاء لأخيه **(أبي بسام)** وألبسه إياه، لكنَّ أبا بسام كان يتألم من قدميه بسبب الجروح والخدوش التي أصابته بسبب ما تعرض له في أثناء هروبه، إضافة إلى أشواك شجر **(العلّيق)** التي جرّحته في كل جانب من جسده.

تابع الرجال الثلاثة مسيرهم إلى أن وصلوا إلى نهر اليرموك، ثم قطعوا النهر حتى وصلوا إلى الأراضي الأردنية، وكان وقت صلاة الفجر قد حان. أعطى **(أحمد)** الأجرة المتَّفق عليها للرجل الأردني أبي إبراهيم، فأخذها واعتذر عن تصرفه غير اللائق، ثم غادر.

بقي الأَخَوَان مع الحمارَين في وادي اليرموك يريدون الصعود من الوادي إلى القرية التي يقيمان فيها، لكنَّ أبا بسام لم يستطع السير بسبب جروحه، إضافة إلى أنه لم يَذُقْ طعاماً منذ ثلاثة أيام، فركب أبو بسام أحد الحمارَين، وبشقّ الأنفس وصل إلى القرية في الأردن، وقد بدا عليه الإعياء والتعب، فتناول بعض الطعام ثم حمله أخوه **(أحمد)** في سيارة إلى المشفى في مدينة إربد، حيث بقي يُعالج في المشفى مدة شهر تقريباً، فقد كان جسمه مُثقَّباً تملؤه أشواك **(العليق)** وكانت قدماه شبه مسلوختين.

كان أبو بسام يعمل **(بيطاراً)** أي يركِّب الحَذْوةَ للخيل والبغال، وكان الوحيد في منطقة فيق الذي يعمل بهذه المهنة، فكان الناس يأتون إليه من أهل المنطقة ومن الأردن أيضاً ليحذوا خيولهم، مما أكسبه كثيراً من المعارف، ولذا فقد تعرّف إليه في أثناء إقامته في المشفى بعض المرضى وبعض من يزورونهم، فكانوا يساعدونه ويواسونه ويوصون به الأطباء والممرضين في

المشفى، إلى أن تعافى تماماً وغادر مشفى إربد متوجهاً إلى مدينة درعا في سورية الأبيّة.

لقد حكى لي ابن عمي أبو بسام هذه الحكاية وهو يبكي لأنها تركت في نفسه جرحاً عميقاً لم يلتئم، سبَّبه له الجنود الصهاينة الغزاة الذين دنَّسوا بلده وقريته وبيته ومضافته، وكانوا يريدون قتله لو استطاعوا، فهم مجرمون وقَتَلَة، ولا بد من طردهم من ديارنا في أسرع وقت، لنعيد لأبي بسام كرامته ونطهِّر له داره ومضافته.

(قِطَافُ الزيتون)

يوجد في فيق كثيرٌ من الثروات النباتية والثروات الحيوانية ومنها المواشي من مثل الأغنام والأبقار، ويرجع وجود أعدادها كبيرة منها إلى توافر المراعي في كل مكان وتوافر الماء في العيون والينابيع والغدران، إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوتها منها، ومن مصادر الخير والرزق، ولا سيما أشجار الزيتون المباركة، فأشجار الزيتون تحيط ببلدة (فيق) من جميع الجهات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكل أراضي السهول أو الأودية حول بلدتي (فيق) مزروعة بالزيتون، وفي السهول أشجار الزيتون بعليّة؛ غير مروية، وقد يصل مداها إلى أكثر من كيلو متر، وأما أشجار الزيتون المروية في بلدتي فهي من جهة الغرب، وهذه الجهة عبارة عن أودية تبدأ ضيقة ثم تتسع في الوسط ثم تضيق عند نهايتها، وقد يتخلَّل بساتين الزيتون بعض كروم العنب كما أنك قد تجد في بساتينها بعض أشجار التين الأخضر والأسود، واللوز وبعض أشجار التوت والبُطم، وقد تجد أن سياج البساتين في السهل والوادي من نبات الصّبّار بحيث يكوِّن حدّاً فاصلاً بين الجار وجاره، كما أنك تجد فيها أشجار السِّدْر والزَّنزَلخت في زوايا بعض البساتين، ويُشاهد فيها أيضاً أشجار الكينا والصنوبر والأكاسيا على أطراف الطُّرق قرب الثكنات العسكرية وفي منطقة السرايا الحكومية، بل إنَّ قسماً من حديقة مدرسة فيق الابتدائية هي عبارة عن غابة من أشجار الصنوبر، وللتذكير أوضح للقارئ الكريم أنه كان من ضمن المواد الدراسية في المرحلة

الابتدائية مادة الزراعة وهي مثلها مثل أي مادة أخرى، لذلك كان لمدرستنا الابتدائية حديقة يمارس فيها التلاميذ الزراعة مثل زراعة الفول والعدس والحمص وغيره في الأرض أو القسم غير المزروع بالأشجار، وكان القسم الآخر عبارة عن غابة من أشجار الصنوبر، وكان الطلاب يتلقّون دروس الزراعة أو تقليم الأشجار ورعايتها عمليّاً تحت إشراف المعلمين في أحضان الطبيعة، وكانت درجة الطالب في هذه المادة تُقدَّر بحسب نشاطه ونجاحه فيما زرع في مَسْكَبَته الخاصة به التي هي من ضمن الحديقة أو بحسب درجة إتقانه لرعاية أشجار الحديقة.

كان زيتون الوادي أكثر من زيتون السهل بما يساوي الضعفين تقريباً، وبعد أن ينتهي موسم الحصاد والبيادر وما إلى ذلك نكون قد اقتربنا من فصل الشتاء، وفي هذا الوقت تنضج حبّات الزيتون ولن تجد في البلدة بَشَراً إلا قلَّة قليلةً منهم، وأغلب هؤلاء إما أن يكون غريباً أو مستأجِراً أو عاجزاً لا يستطيع العمل، لأنَّ كل من يستطيع العمل، وإنْ كان غريباً، يجد فرصة للعمل في قطاف الزيتون أو ما يتعلَّق به من أعمال.

يُعِدُّ الناس السلالم والحبال والأكياس والـمَفارط الطويلة والمتوسطة والقصيرة ويحملونها إلى السهل إنْ كان زيتونهم في السهل، أو يحملونه إلى الوادي إن كان زيتونهم في الوادي، ومنهم من يمتلك أشجار زيتون في الوادي والسهل معاً، وعند البدء بقطاف أشجار الزيتون - الذي قد يستمر أكثر من شهر - كنت أشاهد الناس في الصباح الباكر وأشاهد عائلات بأكملها في قطاف الزيتون، وهم يحملون الطعام والشراب إلى الكروم والبساتين يبدؤون العمل باكراً (على البَرَاد) كما يقولون.

كنت أراهم يعملون بجد ونشاط ويتبادلون أطراف الحديث، فمنهم من يصعد إلى الشجرة ومنهم من يصعد على السلم الذي أُسند إلى الشجرة أو أغصان الشجرة ومنهم يقطف حبات الزيتون من الأغصان القريبة ومنهم الذي يضرب أغصان الزيتون بالمِفراط مُسْقطاً حبات الزيتون على الأرض التي يكون قد مُدَّ عليها بساط أو حصيرة أو شرشف، ومنهم مَن يلتقط الحبات التي وقعت على مسافة بعيدة من الشجرة. وكل حبات الزيتون توضع وتعبّأ في أكياس مصنوعة من الكتان أو منسوجة من الصوف، وأنا ما زلت أمتلك منها كيساً حتى الآن، وإذا رأيته تظن أنه صُنع بالأمس مع أنه قد مرَّ عليه أكثر من ستين عاماً، ويبقى العمل بجد ونشاط بين أفراد العائلة إلى أن تحين الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، عندها يحين موعد تناول طعام الفطور، فيجلسون على الأرض، ويحضّر أحدهم أو تحضِّر إحداهنَّ الشاي على الحطب، وكأس من الشاي مغلية على الحطب أطيب ما يمكن أن تشربه من شاي في حياتك.

وقد كانت العائلات المتجاورة في البساتين تدعوا بعضها بعضاً إلى الفطور أو تناول الشاي معاً، وهم يعيشون في جو من البهجة والسرور، وبعد تناول طعام الفطور ينهضون إلى العمل ثانية بجد ونشاط إلى قرب غياب الشمس، ثم يحملون ما قطفوه من أكياس إلى المنزل ويفرِّغونه في غرفة من غرف المنزل خُصِّصت لهذا، ويستمرون على هذه الحالة أكثر من شهر، ولكن الفلاحين والفلاحات لا يعملون وهم صامتون، بل يتكلمون ويغنُّون حتى لا يشعر أحدهم بالملل في أثناء العمل ومما أحفظه من أهازيجهم آنذاك قولهم:

(يا ريتك عندي يا ريت

ربّك كريم يخرج من الخشب زيت،

يا ريتك عندي بالبيت

وطعميك من هذا الزيت).

كنت أكبر إخوتي وأنا لم أنهِ المرحلة الابتدائية بعد، وكان رزقنا وزيتوننا كثيراً وأبي وأمي - رحمهما الله- وحيدَين وقد يكون معهما عامل واحد أو عاملة بالأجرة، ولذلك كانت أمي تنظر بعين الحَسْرة إلى الأقارب والجيران الذين لديهم شبّان وشابّات كثيرون من أفراد عائلتهم، يعملون معهم في حقول الزيتون، وهم كثر في حين نحن قليلو العدد وصغار في السِّنّ، حتى إن أمي كانت في أكثر سنوات قطاف الزيتون التي أذكرها إمّا حاملاً أو مرضعاً، وأتذكّر أنها قبل سنة من الاحتلال كانت ترضع أختاً لي اسمها **(خولة)** كانت بعمر شهر أو شهرين، وكانت تعمل مع أبي في قطاف الزيتون وتربط أرجوحة لخولة وتأمرني أن أهزَّها لتنام، وفي إحدى المرات سقطت خولة من الأرجوحة ونلتُ نصيبي من التأنيب والشتم، وكانت تردِّد وكأنها تنوح بحزن قائلة: **(متى تكبرون يا صغار، وتجلون عن ظهري الصدأ؟!)** طبعاً معنى هذا أنها تنتظر أن نكبر لنكون عوناً لها ونساعدها.

الزيتونة شجرة مباركة، دائمة الخضرة، جميلة المنظر، كبيرة الفيء تعطينا كثيراً من الخير، وهي تعيش في أفقر الأراضي، وثمارها من حبّات الزيتون يُستفاد منها في الأكل وصناعة زيت الزيتون، كما يُستفاد من شتلاتها الصغيرة التي تصلح للزراعة في أراضٍ جديدة، وكان يستثمرها أهل البلدة بزراعتها في أرضهم أو أهل القرى المجاورة بغرسها في أراضيهم، فكل

الزيتون أو أغلبه في القرى المجاورة مثل: (سكوفيا، والعال والياقوصة، ودبوسيا، وحيتل، وجبين، وكفر حارب، وصفورية، وعيون، وحتى شكوم والنقيب) خرج في البداية من بلدة فيق.

كذلك يُستفاد من دريس حبات الزيتون بعد أن يُعصر، فبذرة حبة الزيتون المكسَّرة وقشرها ومعها الحثالة تُجمع بشكل قطع بحجم الكف وتوضع في الشمس لتجفّ وتسمى (دَرِيساً)، وهذا الدريس هو كالفحم الحجري يستخدم في التدفئة في الشتاء، وشجرة الزيتون تعطينا أيضاً الحطب الجيد الذي نستخدمه في التدفئة شتاء حيث كانت المدافئ في البيوت كلها تقريباً تعمل على الحطب.

وبعد أن يُقطف الزيتون ويوضع في إحدى غرف المنزل، يقوم أهل الدار بسلقه أوّلاً بأوَّل وإشعال النار من الحطب المعدّ مسبقاً لتلك المهمة تحت قِدْر كبير أو نصف برميل، ويسلقون حبات الزيتون كما تُسلق حبات القمح، ثم ينتشلونه من البرميل أو القِدْر بوساطة مصفاة كبيرة ويوضع في (الجُونة) التي سبق ذكرها، وحينما يبرد قليلاً يُحمل إلى السطح ويُنشر ليجفَّ، وبعد أن تجفّ حبات الزيتون تُعبّأ في أكياس وتُنقل إلى المعصرة على ظهر الدواب.

كان في فيق معصرتا زيتون قديمتان قِدَم الزيتون فيها، والمعصرة القديمة منهما تعمل بوساطة الحجر؛ حجر في الأسفل بشكل دائري، وحجر في الأعلى، يخترقهما عمود يساعد على دوران الحجر الأعلى ويبقى الحجر الموجود في الأسفل ثابتاً، وتوضع حبات الزيتون بين الحجرين فتُكسَّر، ويثبَّت في وسط الحجر الأعلى عمود من الخشب القوي على رقبة دابَّة؛ غالباً ما تكون جَمَلاً أو حصاناً أو بغلاً لتساعد في دوران الحجر الأعلى فوق الحجر

الأسفل، وبعد أن تُدرَس حبات الزيتون وتكسَّر، تُعبَّأ فيما يشبه تماماً عجلة **(دولاب)** السيارة الخارجي، وهو مصنوع من الليف ويُعبّأ في داخله الزيتون المكسَّر، ثم توضع العجلة واحدة فوق الأخرى في عمود المكبس، وبعد أن يصبح عددها عشرة تغطّى بغطاء المكبس وهو قطعة ثقيلة من الحديد ينزل عليها المكبس بوساطة مقود يشبه مقود السيارة، له عمود محلزَن يُشَدّ بالمقود إلى أقصى درجة، ومن بداية ضغط المكبس يبدأ زيت الزيتون بالسيلان إلى حوض دائري، يصبُّ عن طريق صنبور في برميل أو قِدْر، وبعد ذلك يُعبّأ الزيت في عبوات من القصدير **(التَّنَك)** وتسمى الواحدة منها بالـ **(سطل)**، وهكذا تُدار عملية استخراج الزيت من حبات الزيتون.

الصورة (١٢): صورة معصرة قديمة للزيتون

كان جميع الناس يحجزون دوراً لعصر زيتونهم، وقد يضطر أحدهم أن ينتظر مدة أسبوع أو أكثر ليأتي دوره في عصر حبات زيتونه، وكانت ملكية إحدى المعصرتين في بلدتنا تعود إلى جدي **(موسى المقبل إبراهيم القبلان)** وأولاد عمه رحمهم الله، وكان اسمها **(معصرة الذيابات)** والمعصرة الأخرى لوجيه عشيرة الحجايرة **(شهاب الحمد)**، وكنا، نحن الصبية الصغار - أولاد الحارة، وأنا منهم - على موعد يوميّ عند أذان المغرب للذهاب إلى

المعصرة، لأننا كنا نعرف أن العمال فيها سوف يشترون بمقايضة كمية من الزيت بـ (صدر) من الهريسة أو الشعيبيات أو نصف (سطل) من الحلاوة أو (شليف) من التمر أو بشيء من عُلَب الراحة أو بشيء من عُلَب البسكويت، فلم نكن نحن الصغار نترك هذا الموعد أبداً، فكنا نتسلّل واحداً تلو الآخر، إذ يكون رجال المعصرة قد بدؤوا بتناول ما أحضروه من السوق، لأنه سينالنا من الحب جانب، ولأن الخير في تلك الأيام كثير، ومَنْ مِثلُ الصغار يحب الحلوى! وكذلك العمال يحرقون كثيراً من الحريرات، لأن عملهم طوال النهار شاق، فكان مغيب الشمس موعداً مؤكداً بيننا، نحن الصغار، للذهاب إلى المعصرة لتناول الأنواع المختلفة من الحلوى، ولا سيما أنَّ الموجودين فيها هم أهلنا؛ آبائنا أو أعمامنا أو إخواننا الكبار أو أخوالنا، فالكل قريب للكل.

كانت أيام عصر حبات الزيتون التي تستمر أكثر من شهر عيداً لنا نحن الصغار، وكانت أيام خير لأصحاب الزيتون وأيام عمل مأجور لمن ليس له عمل من أهل الحي أو العشيرة وأهل البلدة كلها، فلا توجد بطالة لأحد في تلك الأيام أبداً، كما أن النقود لم تكن مهمة في تلك الأيام، فإذا أردت أنا بصفتي تلميذاً في المدرسة شراء دفتر أو قلم أو غيرها من حاجات المدرسة كنت آخذ كمية من الزيت في طنجرة وأبيعه ثم أشتري ما أريد من حاجات الدراسة، وكان يزيد معي قليل من النقود فأشتري به تمراً أو قرص معمول أو غير ذلك.

وكان الفلاح يسدِّد كثيراً من ديونه المترتّبة عليه من ثمن الزيت الذي يبيعه أو من ثمن الحبوب أو من ثمن صوف الأغنام أو من بيعه للخراف، أو حتى من بيض الدجاج أو من الدجاج نفسه أو من بيعه للأرانب التي كانت تُربّى في بيته أو من منتجات حليب الأغنام أو الأبقار من سمن بلدي

وزبدة وجميد (اللبن المجفَّف) أو من بيعه لعسل النحل إذا كان لديه خلايا نحل، وهي لا تكلف أي شيء في تلك الأيام، وأذكر، وأنا الولد الصغير، أن أمي - رحمها الله - في الأيام التي سبقت نكسة حزيران عام ١٩٦٧م قد جمعت اثنتين وعشرين ليرة ذهبية كانت تسمى (الرشادية) نسبة إلى السلطان العثماني (محمد رشاد) من بيعها لبيض دجاجاتها، ولقد وجدنا ليرات الذهب تلك ثروة كبيرة عندما أُخرجنا من ديارنا وأرضنا، إذ باعها والدي وكنت معه في سوق الذهب في دمشق (سوق البزورية) واشترينا بثمنها بيتاً واسعاً في ريف دمشق في منطقة الحجر الأسود، سكنته عائلتنا بدلاً من الخيمة في المخيم. ولم توافق والدتي رحمها الله على بيع ذهبها الذي وفرت ثمنه مدّةً طويلة من السنين من بيض دجاجاتها بيضةً بيضة إلا بعد أن أيقنت واقتنعت أن غيبتها عن أرضها وبلدها ودجاجاتها ستكون طويلة وقد لا تراها ثانية، وهذا ما حصل فعلاً، كما أنها أدركت أن شراء بيت للعائلة سيكون أمناً وحماية للعائلة من الضياع أو الشر، وأنه سوف يكون مقرّاً وعنواناً للعائلة والأهل والأصحاب والأحبة، وأن هذا البيت هو بيت (أبو زكريا) (صالح موسى المقبل)، الذي أذكر أنه حينما وافته المنية وهو في حالة النزاع مع الموت أوصاني بصفتي أكبر إخوتي وأخواتي أن أحمل رفاته إلى بلده فيق حيث دفن أبوه وجده وأجداد أجداده كلهم هناك في ترابها الطاهر الذي أحبَّه وأحبَّ أن يُدفن فيه، وبالمناسبة فقد دَفن أبي ستة إخوة لي ماتوا صغاراً في مقبرة البلدة هم: (فاطمة، وحسين، وعقل، ومحمد، وصفاء ورجاء)، وهاتان البنتان الأخيرتان كانتا توءماً، وأذكر أنا كيف مات أخي عقل صغيراً قبل أن يمشي على قدميه، فقد أصيب بالحصبى واشتدت عليه الحمّى وفي النهاية تعافى منها، ولكنه خسر بصره، وقد أعطاه الله عينين زرقاوين واسعتين، لكن الحصبى سرقتها منه ثم سرقت حياته.

مات أخي (عقل) في الشتاء وكنت أنا وإخواني منصور وأمين نلعب بالكرات الزجاجية - وهي تسمّى الـ (مازات) أو الـ (الدحاحل) - داخل غرفة العائلة، وكان الجو شتاء، وكنت أسمعه ينادي أباه ولم أكن أدري لماذا يفعل ذلك، إذ إني كنت صغيراً لا أعي ولا أدرك ما يحدث، نادى أخي (عقل) أباه/أبي كثيراً، ثم سكت سكتة واحدة، فظننتُ أنه نام، وفي الحقيقة هو قد نام ولكنها نومته الأبدية، وجاءت أمي ملهوفة، وقد كانت تنظِّف تحت البقرات في الزريبة وتضع لها العلف، لأن الجو كان ماطراً والأبقار لا تذهب مع الراعي إلى المرعى المعتاد في الوادي إذا كان الجو ماطراً في معظم أيام الشتاء، فقالت أمي رحمها الله: (كيفو أخوكم عقل)؟ قلت لها: يا أمي عقل نادى كثيراً على أبي ثم نام (كما ظننت أنا) فاقتربت منه ثم بدأت تدور حوله وتنظر إليه بحدّة، وتعود فتدور وتقف عند قدميه، ثم تدور وتقف عند رأسه، وهكذا عدة مرات ... ثم توقفت عن الدوران وجلست قربه وحرَّكته بلطف في البداية، ثم هزَّتْه بعنف، ثم صاحت، ومن شدة صرختها هربت أنا خارج الغرفة حافي القدمين مرعوباً متوهِّماً أنني قد ارتكبت خطأ عظيماً، وأنني سوف أُعاقب على ما فعلته، وأخواي الأصغر مني سنّاً أمين ومنصور رحمهما الله تجمَّد كلٌّ منهما في مكانه، ثم سكتت أمي قليلاً، ثم بدأت تنوح عليه نواحاً يصل صداه إلى الوادي، ثم وضعتْه على صدرها تضمُّه ثم تشمُّه وتنوح، إلى أن جاء جدي وبعض الأهل والأقارب واجتمع الجيران على صوت نواح أمي التي ظلَّت تحمل أخي (عقلاً) إلى أن حضر أبي فتجهَّم وجهه حينما رأى هذا العدد من الجيران متجمّعين في غرفتنا، ومضافة جدي غاصَّة بالناس، فقالت أمي لأبي قبل أن يسأل: (هاك هذا عقل كان ينادي عليك كثيراً كثيراً، خذه وأكرمْه أكرمك الله)، فتجمَّد والدي في مكانه دون حراك ولا كلام، ثم حمل أخي (عقلاً) وجعل يبكي عليه، وظلَّ على هذه الصورة حتى أُنهك، فهدأ، ثم استغفر ربه ووحَّده، ثم قال للنسوة من أقاربنا:

غسّلوه وكفّنوه، وبعد أن انتهت النساء من تغسيله وتكفينه حمله بين يديه ثم ركب الحمار واتجه إلى المقبرة، وكنتُ قد لحقت به إلى هناك، فالتفت إلي قائلاً: لماذا جئت يا ولدي؟ قلت له: أريد أن أحضر دفن أخي (عقل) فسكتْ، ثم وصلنا المقبرة وحفر له قبراً يناسبه بوصفه طفلاً وصلّى عليه وقرأ الفاتحة، ثم أمسك بيدي وقال: هيا فلنعد إلى البيت لنواسي أمك الحزينة.

عدنا معاً والحزن يلفُّنا إلى البيت. قال أبي لأمي حينما وصل البيت: وحِّدي الله، هذا طير من طيور الجنة بإذن الله، وهو سيشفع لنا يوم يقوم الحساب، وبقي يواسيها بمثل هذا الكلام إلى أن غابت الشمس.

بعد احتلال الجولان تابعت أنا دراستي حتى تخرَّجت في جامعة دمشق قسم اللغة العربية وآدابها، وقد كنت درست وقرأت رثاء الخنساء لأخيها صخر في قصيدتها المشهورة (قذًى بعينكِ أم بالعينِ عُوّارُ)، إذْ شبَّهت الخنساء نفسها بالناقة التي مات ولدها صغيراً، وقد سُلخ جلده وحُشي بالقش أو التبن، وهذا الجلد المحشو بالقشّ أو التبن يسمى (بَوّاً)، وكانت الناس تفعل هذا مع الإبل والبقر، فيخرجون ويضعون (البَوّ) أمامها حينما تأتي من المرعى لتدُرَّ الحليب حتى لا يجفّ ضرعها، لأن الناقة أو البقرة إذا مات وليدها جفَّ حليبها وهذا (البَوُّ) هو خدعة كي تستمر الناقة بإدرار الحليب، فكنت أقارن بين صورة أمي وما فعلتْه حين موت أخي عقل وصورة الخنساء التي قالت في تلك القصيدة مشبِّهةً نفسها بالناقة التي كانت تدور حول (البَوّ):

وما عَجولٌ عَلى بَوٍّ تُطيفُ بِهِ ... لَها حَنينانِ إِعلانٌ وَإِسرارُ

تَرتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إِذا اِدَّكَرَت ... فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ

يَوماً بِأَوجَدَ مِنّي يَومَ فارَقَني ... صَخرٌ وَلِلدَّهرِ إِحلاءٌ وَإِمرارُ

وكأنَّ الخنساء كانت تصف أمي فيما جرى معها لـمّا رأت أخي **(عقلاً)** ساكناً لا يتحرك، ولـمّا أوجست خيفة من موته، ثم تيقَّنت أنه مات، ففُجعت بذلك.

كانت تقع بعض الحوادث المؤلمة أحياناً في أثناء قطاف الزيتون، كأنْ يسقط أحدهم عن ظهر الدابة أو تلدغه أفعى أو عقرب أو أن يسقط من أعلى الشجرة أو يسقط عن السُّلَّم المرتكز على الشجرة أو ينكسر به السُّلَّم، وما زلت أذكر إلى الآن كيف سقط ابن عم لي واسمه **(هايل سليمان الأحمد)** من أعلى شجرة الزيتون إلى الأرض. كان **(هايل)** طالباً في الصف الأول الثانوي أو الثاني الثانوي آنذاك، وللأسف فقد تهشَّمت رأسه وكانت الدماء تنزف من رأسه من كل جانب، وكانت أمه تصيح وتولول، إذ كان أكبر أولادها، وراح أبوه يطلب النجدة **(الفَزْعة)**، وقد حضر أغلب من في الوادي تلبية لنداء **(أبي هايل)**، وهو يقول: **(يا هابّين الريح وين راحوا)**، ثم حمَله أحدهم على حمار وأخذه إلى القرية، حيث الطبيب والصيدلية، فعالجوه هناك وضمَّدوا جروحه وأعطوه الدواء المناسب، وقد شفي بعد أسبوعين، وبعد أن احتلَّ الصهاينة الأشرار الجولان تابع **(هايل)** دراسته وحاز الشهادة الثانوية ودخل الكلية الحربية وتخرج فيها ووصل إلى رتبة عميد ركن، قبل أن توافيه المنية رحمه الله.

(العيون والينابيع والسيول في أرض فيق)

مدينة فيق مدينة قديمة جداً قِدَم التاريخ، وإنك لتجد فيها آثار الإنسان القديم من كهوف وبيوت ولُقًى، فقد كان هذا الإنسان يسكن في المغارات والكهوف، ولا سيما في وادي عين **(عَبُّون)** وهو نبع ماء غزير دائم الجريان ينبع من أسفل الجبل، من مغارة بطول أربعة أمتار، تقريباً ويجري ماؤه بمحاذاة الجبل تماماً مسافة أربعة أمتار أخرى ليصبَّ في بِركة من صنع الإنسان، مُحاطة بالحجارة بما يشبه خزان الماء، وله أنبوب **(ماسورة)** بحجم ثلاثة إنشات تُسَدّ وتُفتح بحسب الحاجة، فهي - أي البركة - تُسدُّ بالطين والحصى وأوراق النعنع البري كي يمتلئ حوضها، ثم تُفتح لسقي أشجار الزيتون، وحينما يُسدُّ الأنبوب يصل ارتفاع الماء في حوض العين إلى أكثر من متر تقريباً، وقد كان ماء هذه العين قِسْمَةً بين الناس؛ كلٌّ يأخذ حصته حسب مساحه كرم الزيتون الخاص به، فمنهم من تكون حصته سدَّةً واحدة، ومنهم تكون حصته يوماً واحداً أو يوماً وليلة.

تقع عين **(عبّون)** غرب البلدة في أول وادي زيتون عشيرة **(الذيابات)** المتَّجه من الشرق إلى الغرب، ولكن هذه العين مطلقة الجريان في فصل الشتاء بسبب وفرة الأمطار وعدم الحاجة إلى مياهها، وفي بِركة هذه العين تعلَّمتُ السباحة صغيراً، كما تعلَّم ذلك كلُّ الأولاد الصغار الذين يرتادونها، ولا سيما في فصل الصيف، فقد كانت مزاراً للكبار والصغار بصورة شبه يومية في هذا الفصل.

في هذا الوادي وعند هذه النبعة كنا نشعر بالراحة والهدوء والطمأنينة المطلقة التي لا مثيل لها وفي الخريف كان الناس يقصدونها لغسل الصوف أو غسل القمح الذي سيُعَدُّ ليكون برغلاً، وهناك نبع ماء آخر في السفح المقابل لعين (عبُّون) وهي (عين مالك) التي تقع في السفح تحت نادي ضباط فيق إلى جهة الشمال بنحو نصف كيلو متر تقريباً.

تنبع (عين مالك) من سفح طيني ولها بِركة صغيرة، وهي نبع قليلة الماء، ولكنَّ ماءها دائم، وقد كان لنا بستان قربها تماماً مساحته ثلاثة دونمات أو أكثر يُسقى من هذه العين. كان هذا البستان بمنزلة جنة من جنان الأرض، ففيه أشجار الزيتون والتين الأخضر والتين الأسود والرمان، وكانت دوالي العنب الموجودة فيه تتسلق أشجار الرمان أو التين، إذ لم يكن لها (مُعَرِّشات)، وكان سور البستان من نبات الصبار من كل الجهات، حتى إنك لا تستطيع الدخول إليه إلا من بابه المقابل للعين، كما كان يوجد بجوار هذه العين (عين مالك) في الجهة العُلوية منه بساتين متنوعة الأشجار؛ مثل بستان (محمد أبو مشيلح) (أبو نمر) الذي يحوي كثيراً من أشجار اللوز، إضافة إلى الزيتون طبعاً، وتحت نادي الضباط مباشرة كان يقع كرم عنب للمدعو (محمد الرحال/ أبو قاسم الرحال) ويقع فوق عين مالك كرم عنب لا مثيل له للمدعو (حسن الحسين/ أبو يحيى) وكانت تحرس هذا الكرم زوجةٌ لأبي كان قد تزوَّجها قبل أن يتزوج أمي اسمها (مغيضة) التي أصيبت بمرض أدى الى انحناء ظهرها ولم تعد تستطيع الحمل والإنجاب فطلَّقها أبي وكنت أنا أذهب إليها حينما ينضج العنب فتعطيني كثيراً منه، فآكل ما آكل، وكانت تحمِّلني كثيراً من العناقيد وتقول لي: خذها إلى البيت وأطعم إخوتك وأمك، وعندما كنت أصل إلى البيت وترى أمي العنب

كانت تعرف مسبقاً أنه من عند (مغيضة) ضرتها فتقول لي: (أيوا، كنت عند مغيضة يا داشر؟ فأقول لها: نعم)، كنت عند خالتي (مغيضة) أليست خالتي زوجة أبي؟ لو أنها رُزقت بأولاد أو بنات ألا يكونون إخوة أو أخوات لي، فتقول أمي: (اسكت يلّا هات العنب وانقلع من هون).

كانت (عين مالك) بكرومها وبساتينها جنة حقيقية، ولم يكن لبستاننا فيها ناطور، ولم نكن نحميه ولم نكن نمنع الناس أياً كانوا من أن يأكلوا من تينه وعنبه وصباره ورمانه، فكان الصيّاد والعسكري والراعي وعابر الطريق وابن البلدة يأكلون من ثماره، فقد كان جدي (موسى المقبل) يقول: لا تحموا بستان (عين مالك)، إن لدينا غيره كثير، فاتركوه لتكون ثماره صَدَقة تدفع البلاء عنكم جميعاً يا أولادي.

كانت طيور (البلابل) لا تغادر (عين مالك) لا صيفاً ولا شتاءً لجمالها ودفئها ووفرة الغذاء فيها، إذ لم تكن تعيش في أي مكان من وادي الذيابات الطويل العريض إلّا في (عين مالك)، ففيه كان مقرّها ومستقرّها، وكان يوجد تحت نادي الضباط في أسفل سفحه شجرة تين كبيرة جداً، وكان ذلك السفح مزروعاً بالألغام، وكنت أنا الولد الصغير لا أتورّع عن دخول حقل الألغام والوصول إلى شجرة التين تلك دون خوف، وقد تمرّست على طريقة الدخول والوصول إليها، لقد كان تين تلك الشجرة تيناً مميزاً ولذيذاً ولا زلت أحس بلذة طعمه وطيب مذاقه إلى الآن، وكلما اشتريت تيناً أقول: هل هو مثل تين شجرة نادي الضباط!؟

وكنت، وأنا الولد الصغير، إذا ما أردت الذهاب إلى وادي الزيتون أركب على الحصان، وحينئذ لا بد لي من أن أمرَّ على (عين مالك)، لأنها في

طريقي إلى الوادي، وكان طريقها قرب العين مفروشاً بحصى من الصوان، فكانت أصوات احتكاك حذوات الحصان بالصوان تصدر أصواتاً وأنغاماً تُطرِب الآذان، فكنت دائماً أذهب وأعود لأستمع إلى تلك النغمات، كما أن الطريق قرب العين كان متشابك الأشجار والأغصان، فكنت أستمتع بمروري من تحتها، فكأنني كنت أنتقل في أثناء مروري هذا إلى عالم آخر أجمل وأكثر بهاء، ولسان حالي يقول: أيُّ طريق مثل هذا الطريق؟! ظِلٌّ ظليل ونَغَمٌ جميل.

في بلدتي (فيق) ينابيع ماء كثيرة وأقربها إلى البلدة (عين القرية) فهي بمنزلة وادٍ بين البيوت، كانت تقع تحت دارنا مباشرة، وعين القري ة هذه ليست عيناً واحدة بل ثلاث عيون، كلها تنبع من الصخر أو من أسفل الجبل الصخري، وكان أكبرها يقع في جهة الشرق، وقد صنع لها أهل البلدة حوض ماء بحجم الغرفة الكبيرة، له سقف بفتحة واحدة من الأعلى، رُكِّب عليه أنبوب معدني (ماسورة) يخرج منها الماء من الأسفل خروجاً مستمراً، وكان ماء هذه العين يستعمل للشرب، وهو أغزر من ماء العينَين الآخَرَين، وعلى بعد خمسة أمتار أسفل العين الرئيسة يوجد نبع ماء له خزان من الإسمنت وسقف أيضاً، وله فتحة واحدة، كان بعض الناس يستحمون فيه، ولكنه كان خطراً على الأطفال الصغار مثلي.

وإلى الجنوب من هذين النبعين النبع الثالث الذي يخرج من أسفل الجبل، وقد صنع له الناس حوضاً بطول عشرين متراً تقريباً، وكانت هذا النبع يسمى (عين الجابية) نسبة إلى الحوض الذي يصبُّ فيه الماء، وهو عبارة عن جابية تشرب منها المواشي لمن أراد أن يسقي مواشيه منها، ولكن هذه

العين في آخر أيامنا هناك كان فيها كثير من العَلَق الذي قد يقتل المواشي فأصبح الناس يتحاشون سقاية حيواناتهم منها.

كانت جابية العين تمتلئ بالماء وتسيل إلى الغرب، وكان أنبوب عين القرية التي يشرب منها الناس مفتوحاً دائماً، والعين التي في أسفله يمتلئ خزانها فيسيل إلى الغرب أيضاً، وجميع مياه هذه الينابيع الثلاثة تلتقي معاً في أول وادي **(الحجايرة)** وتجري معاً إلى الغرب لتروي بساتين الزيتون هناك، وفي وسط الوادي باتجاه الغرب أيضاً تجد عين ماء تسمى **(عين ندار)** وهي نبع ماء مفتوح ليس له حوض أو بِركة، يتابع ماؤه الجريان متَّحداً مع ماء العيون الثلاث للقرية باتجاه الغرب أيضاً إلى آخر وادي الحجايرة، وقبل نهاية الوادي بقليل تجد نبعة ماء زلال تسمى **(عين هديش)** تقع في أسفل جبل يسمى جبل الظهر، وفي طرفه الجنوبي الغربي توجد مادة الكلس الأبيض؛ ناصع البياض.

كان الناس يذهبون إلى طرف ذلك الجبل حيث يتكوّن الكلس مرة في كل عام، وذلك عندما يحين موعد طرش البيوت باللون الأبيض، إذ كانوا يستعملون الكلس الذي يستخرجونه منه بديلاً من الدِّهان الصناعي المستعمل في هذه الأيام، فكان كلُّ مَن يريد طلاء غرفة في بيته أو أكثر، ولا سيما المضافة، يذهب إلى ذلك الجبل حاملاً فأسه ومطرقته على ظهر دابّة، ليجلب الكلس إلى البيت، ثم يخلطه بالماء، وبوساطة مكنسة القش كان يطلي بيته باللون الأبيض الناصع.

كان أهم وادٍ بالنسبة إلى سكان بلدة فيق هو **(وادي مسعود)** الذي يحيط بها من جهة الجنوب، وهو وادٍ فيه أشجار حرجيه كثيرة ومتنوعة؛ مثل

أشجار البلوط والخروب والسنديان والزعرور والسرو والدّفلة، وهو أشبه ما يكون بغابات إفريقية في عظم مساحته وكثافة أشجاره، وهو يمتدُّ من الشمال إلى الجنوب متّجهاً نحو وادي اليرموك. كان هذا الوادي كثير العشب والكلأ والمرعى وكثير الماء على مدار العام، لذلك كانت أبقار أهل فيق ترعى فيه طوال العام تقريباً، وأما أهم العيون فيه فهي (عين البيضاء) وهي غزيرة، دائمة الجريان، ماؤها عذب جداً، طيب الطعم، فكلما ذقتَه طلبتَ المزيد، كما كانت تعيش فيه أنواع كثيرة من الطيور المقيمة والمهاجرة، ولا سيما الحجل والحمام البري وعدد من أنواع الطيور الجارحة مثل الصقر والعقاب والباشق والحدأة، كما أنه كان مرتعاً لبعض الحيوانات المفترسة، ومنها الضباع خاصة، وكذلك كان يعيش فيه بعض الفهود والنمور والذئاب والغزلان والخنازير والأرانب، وكانت هناك أماكن في مجرى (عين البيضا) لا يمكنك الدخول إليها، بسبب كثافة وتشابك أشجار العليق، وكانت تلك الأماكن خطرة، بسبب وجود الأفاعي والوحوش المفترسة، ولا سيما في فصل الصيف، ولا بدّ لي في هذا المقام من أن أذكر السيول الجارفة الموسمية التي كانت تتكوَّن في أثناء هطول الأمطار في فصل الشتاء، فكان سيل (النُّهَير) الذي يأتي من الشرق إلى الغرب يقطع بلدة فيق إلى نصفين؛ شمالي وجنوبي، فلا يستطيع أحد الوصول إلى القسم الشمالي من القرية، ولا سيما طلاب المدارس من القرى الواقعة جنوب البلدة المجاورة لفيق؛ مثل (كفر حارب، وصفورية، وعيون، ودبوسية، والياقوصة، وسَاعِد وبطّاح)، فقد كان هذا السيل المسمى بالنُّهير جارفاً، سريع الجريان جداً، حتى إنه يجرف الصخور في طريقه، وكنت أسمع هديره من بُعد وهو مثل هدير البحر، بل كان هديره يُسمع في كل القرية، وكان هناك سيل جارف

آخر هو سيل (البالوعة) الذي يقع شمال القرية، ويجري من الشرق إلى الغرب أيضاً مثل سيل (النهير) الواقع شمالي مدينة (فيق)، فيمرُّ بقرى (سكوفيا، وشكوم، والنقيب، والمجيحية، والكرسي، وسائر قرى البطيحة) متزامناً مع (النُّهير)، ويلتقي (البالوعة) مع (النهير) في الغرب في آخر وادي الذيابات ووادي الحجايرة بعد بستان (شهاب الحمد) ويكوِّنان سيلاً جارفاً يستمر في الجريان إلى أن يصبَّ في الطرف الجنوبي من بحيرة (طبريا).

من مصادر المياه في بلدتي (فيق) غديران هما: (غدير البالوعة) الذي ينبع في مجرى سيل البالوعة وكان رعيان الغنم يسقون الأغنام منه صيفاً، ويجف قبل حول الشتاء بقليل، وغدير (أبو زعزوعة) الذي كنت أشرب منه حينما أصطاد بالفخ وأشعر بالعطش مستعملاً منديلاً لتصفية الماء منه، وكان غدير (أبو زعزوعة) ذا ماء قليل تشرب منه الطيور خاصّةً.

كانت الأراضي التي تقع حول بلدة فيق من سهول وأودية بعد هطول الأمطار وحدوث الرعد والبرق تمتلئ بأنواع كثيرة من الفطر غير السام؛ فمثلاً كانت أرض تسمى أرض (العمود) تمتلئ بنوع من الفطر يسمى فطر (الصفيرة)، أصفر اللون، وهو فطر صغير الحجم، وربما تكون تسميته قد أتت من لونه الأصفر، وكنت - أنا الولد الصغير - أتزحلق به لكثرته ووفرته كما أنه كان غير مرغوب فيه لوجود نوع آخر من الفطر الجيد كبير الحجم يسمّى فطر (الكلخ)، وهو لذيذ الطعم، بل إننا حينما كنّا نطبخه كنّا نشتمُّ منه رائحة اللحم، وكنت - أنا الولد الصغير - كلما أبرقت السماء وأرعدت ليلاً أستيقظ مبكّراً، ولا سيما في الأيام الدوام في المدرسة، أذهب إلى آخر وادي الزيتون في مسافة لا بأس بها إلى أرض تسمى (الـمِقْيَل) على

طرف سيل الماء الضخم من جهة الشمال، وهذا السيل الضخم هو اتحاد سَيلَي (النّهير) و(البالوعة) معاً، وهناك توجد قطعة أرض صغيرة، تمتلئ بالفطر؛ فطر (الكلخ)، كلما أبرقت السماء وأرعدت، فكنت أجني الفطر كله منها وأضعه في صدريّة ثيابي المدرسية أو في قميصي، إذ أجعلها مثل الكيس وأعبئ الفطر فيها، ثم أعود مسرعاً إلى البيت وما يزال لدي وقت متبقٍّ قبل موعد المدرسة، وكنت أوصي أمي رحمها الله بأن تصنع لنا فطاير الفطر حينما تخبز في التنور، وكنت إذا ذهبت إلى أرض (الـمِقْيَل) لا أعود خائباً أبداً.

إن الأرض التي ينبت فيها الفطر تسمى (مَفْطَرَة)، وقد كنت أعرف أكثر من مفطرة، ولم أكن لأدلَّ عليها أحداً أبداً، كما أنني لم أكن أذهب بصحبة أحد إليها، فهي بالنسبة إلي سرٌّ لا أبوح به لأحد، مثلها كمثل عشّ العصفور الذي أجده ولا أخبر به أو عنه أي أحد أبداً.

(تجديد طين البيوت القديمة)

البيوت القديمة في بلدتي (فيق) مبنيّةٌ كلُّها من الحجر والطين، ولا سيما الحظائر، وأسقفها مغطّاة بالقصب والقش أو شوك البلّان أو عيدان الشومر، وتحملها أعمدة خشبية ضخمة، والبيوت الطويلة الواسعة منها كانت تدعم بالقناطر إضافة إلى ما سبق، وفوق ذلك الغطاء كان يوضع التراب، وفوق هذا التراب كان يوضع طبقة ثانية من التراب المخلوط بالقشّ أو التبن والمجبول بالماء، وما من شيء يمنع تسرُّب الماء أو حدوث (الدَّلْف)، ولا سيما في الشتاء إلّا ذلك الطين المجبول بالماء والمخلوط بالتبن المنخَّل بالغربال، بحيث تكون قشّاته ليست بالناعمة ولا بالخشنة، بل وسطاً بين التبن الناعم والتبن الخشن الذي يُخلط مع التراب الخالي من الحصى ثم يُصبُّ عليه الماء ويُجبل جيداً، بحيث يصبح لا رخواً ولا قاسياً، ثم تُطيَّن به الأسطح والجدران، وفي كل عام من شهر أيلول يبدأ الناس بتجديد طين هذه البيوت والحظائر، فإذا كانت هذه البيوت تستعمل للسكن فتُطيّن من الداخل أيضاً.

تبدأ عملية تطيين البيوت أولاً بإحضار التراب المغربل من الحصى والحجارة من وادي عين القرية من طرفها الشمالي تسمى (السُّوديَّة) وهي تقع تقريباً تحت دار (زعل الأحمد) ثم يحمل على ظهور الدواب من حمير أو خيل أو بغال إلى الدار الـمُراد تجديد طينها، ثم يُرفع إلى سطح البيت، لأن عملية التطيين تبدأ بالسطح أولاً، ثم تحمل النساء التراب بالدلو أو (الجونة)

التي صنعتها سابقاً من (القَصَل) - وهو ساق السنابل الذي يُجمع من البيادر في أيام الحصاد - إلى سطح المنزل بوساطة السلالم الخشبية أو بصعود درج حجري، فتوضع في أكوام، ولم يكن وضع الأكوام عشوائياً أبداً، بل إن المسافات بين هذه الأكوام محسوبة بدقّة، بحيث تغطي كل كومة مساحة معينة كافية لتصل إلى ما سوف تغطيه الكومة الثانية، وما سوف تغطيه الأكوام الأخرى حولها، وكان الماء المستخدم في جَبْل التراب المخلوط بالتبن يُعبّأ في براميل موضوعة على السطح مسبقاً، وبعد جبل التراب إلى درجة معينة، بحيث لا يكون رخواً ولا شديد الصلابة كما ذكرت سابقاً، يُـمَدّ الطين بالأيدي أو بما يسمونه (الكريك) على السطح بسماكة واحدة بحيث يكون ميلان السطح موجَّهاً إلى مزراب مثبت في طرف من أطراف السطح كي لا يتجمع الماء على ذلك السطح، وكانت النساء تستعمل حجراً من الصوان مفلطح الشكل يسمّى (الـمَدلك) يدلِّكنَ به خلطة الطين تدليكاً مستمراً حتى يتماسك فيمنع دخول أو تسرب الماء من خلاله إلى الأسفل، والمدلك يشبه السلحفاة الصغيرة التي يساوي حجمها حجم اليد تقريباً.

تُعاد عملية تجديد طين البيوت القديمة في كل عام في الموعد نفسه، وكان الناس من أهل وأقارب وجيران يتعاونون في ذلك من بداية العمل إلى نهايته، ولم يكن أهل البلدة أو القرية في كل زقاق أو حيّ يجدِّدون طين البيوت القديمة في وقت واحد بل بشكل متتابع، وكأنهم يتبعون الدور في ذلك، فإذا سمع أحد أن جاره سوف يجدِّد طين بيوته لا يُقدم هو على هذا العمل في بيته إلا إذا انتهى جاره منه، لأنه سوف يساعده في ذلك، بعدها يبدأ هو بتجديد طين بيته فيساعده الآخرون، وكان أهل الحارة أو الحي من

الجيران والأصدقاء يعلمون أن بيت فلان أو أم فلان سيجدِّدون طين بيوتهم، وعِلْمهم بهذا الأمر يجعله بمنزلة دعوة لطلب العون والمساعدة منهم، ففي الصباح الباكر يبدأ العمل، إذ كنت أرى النساء والبنات يتوافدنَ إلى أهل البيت الذين سيُجدِّدون فيه الطين، وفوراً تبدأ هؤلاء النسوة العمل، وكل منهنَّ تؤدي عملاً معيّناً، وكأنما هناك توزيع للأدوار، ولكن دون أن يبلَّغن بها، وفي أثناء العمل تتبادل النساء والفتيات أطراف الحديث، فتبدأ إحداهن بالغناء وتبدأ الأخريات بعدها بترديد ما تقول، إذ كنَّ يغنينَ من الأغاني الشعبية مثلاً:

(غابت الشمس يا بن قبلان وأريد أدوِّر معازيبي
والدَّلة تسكب على الفنجان وابهارها جوزة الطيبِ
والشمس لو غربت غابت لو ربطوها بكلاليبِ
والبنت لو طوَّلتْ عابتْ كثرتْ عليها العذاريبِ)

ومنها كذلك:

(يا بنية يلي بهواك اثنين
أسألك بالله مَن هُو الغالي
قالت لي باسل صبيَّ العين
ونزار معه الروح خلقاني).

كانت حناجر النساء تصدح بمثل هذه الأغاني وغيرها، وكان ذلك يجعلهن أكثر نشاطاً فلا يشعرن بالتعب والملل، وفجأة يسكتنَ ويسود الصمت لأن إحداهن كانت قد تركت العمل خلسة وذهبت إلى بيتها لتُعِدَّ

لهنَّ الشاي، فيصمتنَ حينما يرينَها تحمل الشاي والصينية، فإذا ما وضعت الصينية على الأرض وبدأت بصب الشاي، بدأت إحداهن تغني:

(يا صبّابين الشاي زيدوا حلاتو

واللي ما يحب الشاي شوهي حياتو).

وأما الأخريات فيغسلنَ أيديهنَّ ووجههنَّ، ثم يجلسن على الأرض لشرب الشاي وأخذ استراحة قصيرة، فتقدِّم المرأة لهنَّ الشاي قائلة: **(أهلاً** وسهلاً، على كيس الله وكيس أم فلان**)**، أي إنها تقصد صاحبة البيت التي يساعدنَـها في تجديد طين بيتها، وبعد شرب الشاي ينهضنَ بهمة ونشاط لإتمام العمل الذي يؤدِّينَه، وفي يد كل واحدة منهن حجر من الصوان يسمى **(**المدلك**)**، ويبدأن بدَلْك الطين ليتجانس ويتماسك ويصير بشكل مستوٍ، سواء كان على الجدار أم على السطح، وكنت - وأنا الولد الصغير - حينها أراقب ما يقمنَ به من عمل دون كلل أو ملل، وأعجب كيف يعملنَ بهمة ونشاط ويتسابقنَ في العمل بشكل منقطع النظير، وكانت النسوة العجائز اللاتي يحضرنَ العمل يبعثنَ فيهنَّ روح النشاط بقولهن: **(**ها بناتي ها **...** ها حبيباتي ها **...** ها حياتي ها **...** تسلم إيديكن**)**، وقد تذكر إحداهنَّ بالاسم بقولها: **(**بنتي ها **...** ها حبيبتي ها **...** فلانة ها **...** ها يا النشمية ها**)**، أو بقولها: **(**عيني يا عيني على أم زكريا، ما تبلى هاليدين يا نشمية**)**، وبسبب مثل هذا الكلام وغيره كانت تدبُّ في النسوة اللاتي يقمن بالعمل روح النشاط وتزداد فيهن الهمة، وكنت أرى إحدهنَّ إذا أرادت أن تشرب الماء لتروي عطشها تعرض الماء على جميع النسوة الموجودات حولها قبل أن تشرب، وبعد الانتهاء من العمل تكون صاحبة الدار أو من ينوب عنها

قد أعدَّت لهنَّ طعام الغداء، وغالباً ما يكون مكوَّناً من لحم الدجاج مع البرغل واللبن، الذي يُصبُّ فوقه - بعد نضجه - السمن البلدي، وهذه الوجبة تسمى لدينا (المليحي)، وإذا كانت صاحبة الدار فقيرة فقد توصي إحدى الجارات أو القريبات المشاركات في العمل أهل بيتها بإعداد مثل هذا الطعام على نفقتها الخاصة، وتحضره إلى منزل صاحبة العمل، وتكون قد أبلغتها مسبقاً بهذا الأمر، وبعد الانتهاء من العمل يغسلنَ أيديهنَّ ووجوههنَّ من الطين، ثم يجلسن لتناول طعام الغداء ثم يودِّعنَ بعضهنَّ بعضاً، وتذهب كل واحدة إلى بيتها.

كانت أيام تجديد طين البيوت القديمة أيام فرح وسعادة ومحبة، وأيام تعاون بين سكان الحي أو الزّقاق (الحارة)، كما أنها كانت أيام عمل جاد ومثمر، لأن تجديد طين هذه البيوت هو الذي يجعلها تصمد كل أيام الشتاء الطويلة أمام المطر مهما كانت غزارته.

كذلك كانت أيام تجديد طين البيوت مناسَبةً للفرح والابتهاج وأيَّ مناسبة! إذ كانت تُـحَلُّ فيها الخلافات فيما بين النساء وما أكثرها من خلافات! ويا لها من خلافات! إذ إنها في غالبها ليست ذات قيمة، ولكنها تبقى خلافات كبيرة بالنسبة إليهنّ، وكذلك كانت أيام الطين فرصة لتقوية أواصر الحب والتعاون بين نساء الحي ونزع الضغينة والشكوك من صدورهنَّ، كما أنها كانت مناسَبةً في بعض الأحيان للاتفاق على خطوبةِ أو زواجِ بنتٍ من بنات البلدة، إذ تتداول النساء هذا الأمر ويتباحثنَ فيه، فمسائل الخطبة والزواج غالباً ما تتداولها النساء أولاً، ثم يؤول الأمر إلى الرجال.

كانت سماكة أسطح بعض هذه البيوت بعد عمليات تجديد طينها تصل إلى أكثر من متر، وهذا ما شاهدته بأم عيني حينما أزالَ أبي السطح الطيني في بعض بيوتنا واستبدله بسطح إسمنتي، وذلك للتخلص من تجديد الطين في كل عام وليكونَ السطح أصلح لنشر القمح والزيتون المسلوقَين، وكذلك كي يصبح السطح أصلح لوضع الحطب عليه ليجفَّ إنْ كان أخضر.

ما أحلى وأغلى وأجمل أيام تجديد طين البيوت القديمة التي كانت تقوم بها النساء بمساعدة قليلة ومحدودة من الرجال! فقد كانت تلك الأيام تسمح لهنَّ أن يكنَّ متعاونات مرة على الأقل في العام، فيا ليت تلك الأيام تعود.

(جمال الطبيعة في فيق)

كان جمال الطبيعة في بلدتي (فيق) أخّاذاً رائعاً لا مثيل له في الجمال، ولا أدري بأيّ الكلمات أصف روعة الطبيعة فيها. إني أرى الكلمات عاجزة عن وصف جمال طبيعتها؛ إذ إنك أينما ذهبت في كل الاتجاهات، في السهول والأودية التي حولها، ستجد من جمال الطبيعة ما يسحر العيون ويخطف الأبصار ويأخذ بالألباب.

فلو قسمتَ البلدة إلى قسمين؛ شرقي وغربي، فسيكون القسم الشرقي كله سهولاً متموّجة على مَدّ النظر، وهي سهول زراعية خصبة كانت تُزرع بالقمح والشعير والذرة البيضاء والحمص والعدس و(الكرسنة) و(الجلبانة)، وأحياناً تُزرع بالخضار من مثل الطماطم (البندورة) والبطيخ والقثاء والباميا والعُصْفر والذرة.

أما القسم الغربي فهو عبارة عن أودية متفاوتة الأعماق والأطوال، وإنك إذا دخلت بيوت البلدة فستجد فيها في ساحة الدار أو أمام الغرف عريشة عنب أو شجرة توت أو شجرة خروب أو شجرة كينا، ولا سيما لدى الذين في بيوتهم خلايا نحل، فحينئذ لا بدّ من وجود شجرة الكينا، كذلك كانت تُربّى داخل الدور الطيور بأنواعها مثل الدجاج وطيور الحبش (الديك الرومي) والإوز والحمام، كما كان بعض سكان البلدة يربُّون الأرانب، فإذا دخلت داراً ولم تكن من أهلها فلا تدري ما الذي سيهاجمك

حينها، أهو الديك؟ وقد يكون في الدار أكثر من ديك فيهجم عليك، وللعلم فإن الديك إذا هاجمك فهو يهاجم بغتة ولا يتراجع أبداً إلا إذا قتلته أو خلَّصك منه أحدٌ ما من أصحاب الدار، والديك قادر، في لمح البصر، على أن يجعل الدماء تسيل من ساقيك أو يديك وأحياناً من وجهك، فهو إذا تمكّن منك فإنه ينقرك من فوق الثياب ويجرحك ويدميك، وإن من أكبر الخطر أن تدير له ظهرك تريد الهروب، فإن الديك في هذه الحالة يزداد شراسة وكأنه يعرف أنك خفت منه فيتمرَّد عليك ويطير وينقرك في مؤخرتك وفي ظهرك، ولم أسمع أنَّ أحداً من الناس في حارتي على الأقل هاجمه ديك وأدار ظهره له ليهرب وخرج بأقل من جرحين، وكأنه طُعن بمخرز، والمضحك المبكي إذا كانت هذه النقرات في مؤخرته أو كان أحدها على الأقل في المؤخرة.

وكان أكبر خطر للديك إذا هاجم ولداً صغيرا أو بنتاً، ومكمن الخطر يكون أن الديك يهاجم الوجه، وأذكر أن ديكاً لنا هاجم ابنه عمي **(نظمية)** وهي صغيرة، حينما كانت آتية لتلعب معي، ففاجأها وجرح خدَّها جرحاً عميقاً، ويُقال: إن الديك يفعل ذلك دفاعاً عن دجاجاته، وقد يهاجمك أيضاً ديك الحبش **(الديك الرومي)** وهذا أكبر حجماً ووزناً، وأطول رقبة، فإذا واجهك تراه ينفش ريشه ويجرُّ جناحيه على الأرض متّجهاً نحوك مباشرة مُطلقاً صوته المعروف المرعب للصغار والنساء. أجل، لقد كان صوت الديك الرومي مخيفاً جداً لنا نحن الصبية الصغار ولا خلاص منه إلا بالهروب بسرعة، والديك الرومي لا يلاحقك مثلما يلاحقك ديك الدجاج، إذ إنّكَ ما إن تغبْ عن ناظريه حتى تراه هدأ وسكت.

كان بعض الناس يربُّون الإوز في دورهم مثل بيت (سالم عوض الأحمد) الذي كان يقع على طريق البيادر شمال البلدة، وأذكر، وأنا الولد الصغير، أنني حينها، وأنا عائد من البيدر، فأكون عطشاً أحياناً فأدخل دارهم- وهي دار كبيرة المسَاحة - لأروي عطشي من الخابية القريبة من الغرفة، وكانت الإوزات حينئذ تسبح في حوض ماء صغير من الإسمنت أعدَّه لها صاحب الدار. دخلت بسرعة لأشرب وأعود بأسرع من حيث دخلت وما إن وضعت إناء الشرب في فمي وبدأت أشرب حتى سمعت صوت الإوزات فنظرت نحو مصدر الصوت فإذا هي قد أصبحت بالقرب مني، مادَّةً رقابها الطويلة مهرولة نحوي مُصدرةً صوتاً عالياً مرعباً، حينها رميت الإناء بما فيه من ماء وأطلقت ساقيَّ للريح متجهاً نحو السياج الأقرب إليّ، لأنه ليس بإمكاني العودة من حيث أتيت، فقد سدَّت الإوزات عليَّ الطريق تماماً، ولذلك قفزت من فوق السياج ألهث مرعوباً مسرعاً نحو الشارع العام الذي كنت أسير فيه، وما إن مشيت قليلاً متَّجهاً إلى دارنا حتى نسيت الأمر، فقد كنا نحن الصغار لا نفكر كثيراً في مثل هذه الحوادث إلا ما ندر.

كان بعض الناس الذين تقع بيوتهم على أطراف البلدة يربُّون كلاب الحراسة لأن بيوتهم تقع في أطراف البلدة لتنذرهم ليلاً من أي شيء يدخل ديارهم مثل الإنسان أو الحيوان، ولا سيما الحيوانات المفترسة الصغيرة مثل الثعلب أو ابن آوى (الواوي)، وكانت هذه الحيوانات تأتي ليلاً قاصدةً خُمَّ الدجاجات، ولذا إذا كان لك رفيق أو صديق في دار من هذه الدور فيجب عليك أن تناديه من بعيد من دون أن تدخل الدار أبداً، فكلاب الحراسة هذه خطيرة جداً لأن الناس يربطونها في النهار ويطلقونها في الليل، فتصبح متوحشة، وعلى الرغم من أنك تعرف أن الكلب أو الكلبة مربوط بحبل

ينتهي بمقبض من حديد مغروس في الأرض بقوة، إلا أنَّك تخاف أن يفكَّ رباطه و يهاجمك، أو تخاف من ألّا يكون رباطه متيناً. إنه من الأفضل لك إذا كان لك حاجة في دار من مثل هذه الدور أن تنادي من بعيد فيخرج أحد أهل الدار إليك، فإما أن يقضي حاجتك وتعود، أو يُدخلك بصحبته إلى منزله، ففي هاتين الحالتين فحسب تكون في أمان، أما غير ذلك فلا بد أن الخطر موجود.

إنَّ كل ما ذكرته سابقاً من حيوانات قد تهاجمك، ولكنْ هناك مخلوق وحيد يهرب منك إذا رآك ألا إنه الأرنب، فالأرانب إذا رأت أحداً هربت كلها، صغيرةً أم كبيرة، ودخلت أوكارها، وإن كثيراً من أهل بلدتي فيق يربُّون الأرانب من أجل الاستفادة من لحمها، ولا سيما أن تربيتها لا تكلِّف شيئاً يُذكر، كما أنها تتكاثر بسرعة وبأعداد لا بأس بها.

كذلك كان بعض الناس من أهل بلدتي، ونحن منهم، يربُّون خلايا النحل داخل البيوت، لأن البيوت في بلدتنا ذات مساحة واسعة، فكان الناس يربون خلايا النحل في زوايا الدار، ولقد كان عسل خلايا النحل في جولاننا الحبيب عسلاً صافياً طبيعياً نقيّاً، لأن النحلات جنت هذا العسل من رحيق أزهار الجولان الكثيرة جداً في سهوله ووديانه، والأزهار في بلدتي غنية عن التعريف في الكثرة والتنوع، ولا سيما في الأودية.

إنك حينما تخرج من نطاق بيوت ومنازل القرية شرقاً تواجهك السهول المزروعة بأشجار الزيتون بمسافات متفاوتة وهي أشجار كبيرة وكثيرة الظلال، وكنت أسمع، وأنا أسير تحتها، زقزقة العصافير وتغريد البلابل. كنت أسمعها وهي تشدو بأعذب النغمات والألحان فأطرب لسماعها، وكنت أشعر وأنا أسير تحتها وكأني في عرس وحفلة موسيقية للطيور

عظيمة ومبهجة، وكنت حينما أخرج من نطاق كروم الزيتون حول القرية أرى أرضاً على مدِّ النظر، إذ تكون هذه السهول صيفاً وخريفاً وشتاءً أرضاً جرداء، ولكنها مفعمة بالحياة، فكنت أرى رفوفاً من الطيور هنا وهناك تأكل من بقايا ومخلَّفات الحصاد.

في فصل الشتاء لا نستطيع السير في هذه الحقول لأنها طينية، ولأن السائر فيها سوف يعلَق بالوحل حتماً، لذلك كان راعي البقر في بلدتي لا يرعى أبقاره شتاءً في السهل حول البلدة، حرصاً على الأبقار من أن تغرق في الوحل.

إنك ترى في فصل الربيع منظراً خلّاباً لا يستطيع أحدٌ وصفه، ولا يستطيع أي فنان رسمه، إنه من صنع الخالق. إنك تجد أينما ذهبت أو اتجهت مناظر كثيرة رائعة الجمال من الأعشاب والورود والأزهار مختلفة الألوان، فعن النبات حدِّثْ ولا حَرَج، إذ إنك تشاهد بأمِّ عينك نبات الكزبرة في السفوح وقد نبت وحده بوصفه نباتاً بريّاً، والله أعلم منذ متى وجد في سفوح (وادي سوسية)، وفي أرض تسمى (أرض الجبال) تجد النرجس حقولاً لامثيل لها، تفوح منها الرائحة الزكية الطيبة، وإذا وقفت على شفا الوادي في (أم الحنوت)، وهي أرض تقع على الطريق الترابي المؤدي إلى قرية (شكوم)، فإنك تشاهد السفح كله مزروعاً بشقائق النعمان ذات اللون الأحمر أو ذات اللون الزهري، وفي أرض (الواويات والخروبة) وفي أرض (اللوزة) تجد نبات (الشومر)، وهو نبات طيِّب الطعم، كما أنك تجد بين حقول القمح نبات (الجلثون) وهو نبات له قرون مثل قرون اللوبياء، لكنه أقصر منها، وهذه القرون تؤكل كاملة، وهي لذيذة، وكذلك في كل مكان وفي أي جهة تتجه إليها ستجد نبات (السناريا) الذي تُزال عنه

الأشواك وتؤكل عيدانها، وكذلك تجد نبتة لها أوراق عريضة خضراء، طولها ربع متر تقريباً تسمى (الجربوح) وبعضهم يسميه (بيض أبو حمار)، لأنها تثمر بحبات بحجم البيضة الكبيرة، وتكون خضراء في البداية ثم حينما تنضج تصبح صفراء بلون المشمش تماماً، وكان بعض الناس يأكلها حينما تكون صفراء.

ماذا أصف وماذا أعدّد من أنواع النباتات؟! فالنعناع البري مثلاً الذي ينمو على أطراف السواقي هو وحده برائحته وجماله بمنزلة قصة أو قصيدة أو لوحة فنية. أما الطيور في بلدتي وما حولها فهي كثيرة جميلة الألوان والأصوات، وإنك ترى رفوفاً منها قد غطّت عين الشمس، مثل رفوف (الزرازير)، وهي طيور مهاجرة تأتينا في فصل الربيع، وإن كنت تسير على قدميك فإنك تقول في نفسك: هذا منظر جميل، ثم تقول: بل ذاك أجمل، فسأجلس وأرتاح و أستمتع بهذا المنظر الجميل الخلّاب، ولكنك إذا نظرت إلى ما بعده تقول: بل هذا أجمل، وهكذا ... فإنك تقطع مسافات طويلة وأنت تقول: هذا جميل، بل ذاك أجمل، وأما إذا اتجهت غرب البلدة فإنك ستنزل في أودية مختلفة العمق والاتساع، وهي غابات من صنع الإنسان، ومنها بساتين الزيتون في وادي (الذيابات) وفي وادي (الحجايرة)، وأما في وادي مسعود فتوجد غابات ليست من صنع الإنسان، بل هي من صنع الخالق، ووادي مسعود ينفتح جنوباً متصلاً بوادي اليرموك وهو غابة من الأشجار الحراجية وقد ذكرتها سابقاً.

كل هذه الأودية ذات تربة خصبة جداً، كما أنها تتصف بكثرة العيون والينابيع وكثرة وتنوع الطيور المقيمة والمهاجرة، وإنك إذا وقفت على شفا

أحد هذه الأودية فستسمع أصوات العصافير وتغريدها بشكل لم تسمع مثله من قبل، فهي تبدأ التغريد والزقزقة في وقت محدد صباحاً، ولكنه يضعف بعض الشيء بين الظهر والعصر، ثم يعلو بين العصر والمغرب، وإنك سوف تنسى نفسك في ذلك الوقت، وعند أذان المغرب أو قبله بقليل يسود الصمت في الأودية دفعة واحدة وفي وقت واحد محدد بدقة.

في بلدتي (فيق) لا ملل ولا ضجر ولا اكتئاب، بل تعيش فيها ما عشت حياة فرح وسرور وراحة للنفس والقلب والآذان والعين، لما تسمع وترى من الصور المتعددة للجَمال.

(أيام الفرح ولياليه)

إن الفطرة التي فطر الله البشر عليها والعادات والتقاليد المتوارثة أباً عن جد تدفع بالآباء والأمهات إلى تزويج أبنائهم وبناتهم، وكانت العائلات إذا بلغ الشاب أو الشابة سن الزواج يسعون إلى تزويجهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن الزواج نصف الدين، إذ كانوا يقولون: بارك الله في البيت الذي يخرج منه بيت.

كان أهل الشاب يخطبون لابنهم فتاة غالباً ما تكون من الأقارب وإنْ كانت من غير أهل البلدة، وحينما يتفق الطرفان - أهل الشاب وأهل الفتاة - على المهر وملحقاته من (تلبيسة)؛ أي ما يحضره الشاب الذي يريد الزواج من حلي ذهبية للفتاة، و(جهاز الرقبة) أي ما يُطلب إحضاره من الشاب المتقدّم للزواج من ثياب خاصة بالفتاة، وما يلزم البيت أو الغرفة التي ستسكن فيها من تجهيزات وأثاث، يحدّدون وقت الخطبة، إذ يأتي أهل العريس إلى أهل العروس في الموعد المتفق عليه حاملين معهم ما يلزم للخطبة، ولا سيما الذبائح و(تلبيسة العروس)، وبمشاركة الأقارب والمحبين تقام الأفراح في ذلك اليوم، ومن أهم مظاهرها (الدبكة) التي يشارك فيها النساء والرجال كل على حدة، أو يدبكون معاً، على أنغام المزمار أو (القُصَيبَة)، وكنت أسمع في مثل تلك الاحتفالات الخاصة بالأعراس كثيراً من الأغاني والأهازيج الشعبية المعروفة آنذاك من مثل:

(بِيّا ولا بيك، بِيّا ولا بيك

بيّا الوجع يا زين، بيا ولا بيك

لأسهر وداويك، لأسهر وداويك

واحلفْ عَ نوم الليل، لأسهر واداويك).

وكذلك من أهازيجهم التي كانوا يهزجون بها قولهم:

(يا طير الشوحة، يا طير الشُّوحة

أعطيني محرمتك؛ إيدي مجروحة).

وحينما ينضج طعام الغداء تنفكُّ الدبكة ويتوزع الحاضرون في غرف بيت العروس ولا سيّما النساء، وغالباً ما يدخل الرجال بيت أحد أقارب العروس أو بيت أحد من الجيران، فهذه كانت عادة متّبعة وأمراً مألوفاً في مثل هذه المناسبة، وبعد تناول الحضور رجالاً ونساء طعام الغذاء تُقرأ الفاتحة ويُعقد القِران كي يتمكن العريس من الدخول إلى حيث **(تُصمَد)** العروس؛ أي إلى حيث تجلس على كرسي مزيَّن خاصٍّ بها وحولها النساء من أهلها وأقاربها وصديقاتها، حينئذ فقط يدخل العريس إلى حيث تجلس العروس حاملاً معه **(تلبيستها)** من الذهب في جيبه، أو قد تكون مع أمه أو أخته، فيعطيانها له، فيلبسها لعروسه قطعةً قطعة، وتنطلق مع **(تلبيس)** كل قطعة زغاريد النساء التي تصمُّ الآذان، ويكون الجميع فرحين، والعروس تجلس بين قريباتها وصديقاتها وهي متزيّنة بأحلى زينة، وتلبس أجمل حُلّة، وقبيل المساء يغادر الجميع داعين للعروسين بالرفاء والبنين، وأن يتم الأمر إلى نهايته بالتوفيق، ويكون أهل العروسين قد اتفقوا وحدَّدوا موعد الزواج.

في ذلك الوقت يبدأ العريس بتجهيز بيت الزوجية أو عش الزوجية كما يسمّونه، وتبدأ العروس أيضاً بإعداد وتجهيز ما يلزمها لعشّ الزوجية، وفي تلك الأيام الخوالي في مدينة (فيق) كانت تُعقد الأفراح والدبكات مساء كل يوم قبل موعد الزفاف بأسبوع أو أسبوعين وتدوم الأفراح والدبكات إلى ما بعد صلاة العشاء، وكانوا يسمونها (التعليلة)، وكان الناس يأتون من كل أحياء البلدة ومن القرى المجاورة لها، فمنهم من يأتي ماشياً ومنهم من يأتي راكباً على دابّته، لأن السيارات قليلة في تلك الأيام، وعلى الرغم من ذلك كانوا يأتون ويعودون كل ليلة كما جاؤوا.

كانت تعقد حلقات الدبكة في ساحة كبيرة في البلدة، يتوسّطها ما يسمى (اللوكس) وهو جهاز إنارة يعمل على الكاز يشبه الفانوس، لكنه أكبر حجماً منه، مثبَّت على قضيب من الحديد، وقد يوضع أكثر من (لوكس) في الساحة، وكنت أشاهد في هذه الأعراس فنوناً وأنواعاً من الدبكة، إذ كان يعرض كل مشارك فيها براعته فيها، ولا سيما الشخص الذي كان يقود الدبكة، أي الذي (يمسك على رأس الدبكة والذي يسمونه "الرَّوِّيس")، وللعلم ليس كل من حَضَر العرس يستطيع أن يكون على رأس الدبكة، لأن من (يمسك على رأس الدبكة) هو الذي يقودها ويشرف على حركات من يدبكون ويجاري عازف (الـمِجوز) الذي يدور داخل الدبكة وينتقل من أولها إلى آخرها، ثم يجاري أحد الرجال في حلقة الدبكة ليردَّ على عزفه بالغناء يسمى وهو يسمّى (الرَّدِّيد) الذي يغني حسب اللحن الذي يعزفه عازف (الـمِجوز)، وقد يعزف العازف في الدبكة بالقصبة وتسمى لدينا (الشُّبَّيبة).

كنت أشاهد كذلك حلقات الدبكة للنساء، وحلقات دبكة أخرى فيها النساء والرجال، وتسمّى لدينا (حبل مُوَدَّع)، وكنت ألاحظ وجود أكثر من عازف في ذلك الحفل، فإذا تعب أحدهما دخل الآخر لينوب عنه مباشرة، وكان العازف معه أكثر من مزمار (في عُبِّه)، فإذا تعطل مزماره الذي يعزف عليه، لسبب ما، أخرج الآخر مباشرة، وقد كنت أرى بعض القادمين إلى الحفل يبدأ الدبكة من بعيد قبل أن يصل إلى حلقتها، ولعل ذلك لأنه لم يستطع السيطرة على نفسه لشدة حماسه وطربه وحبه للدبكة، فيبدأ بالدبكة قبل أمتار منها، ويظل يدبك إلى أن يصل حلقة الدبكة ويدخل فيها.

كان الناس في تلك الأيام بسطاء وأغلبهم فقراء، لا يمتلكون المال، ولكنهم كانوا يمتلكون عزة النفس والنخوة والإباء، ولقد رأيت بأمّ عيني بعض المشاركين في الدبكة من الشباب يضع في جيبه قطعاً من أغطية المرطبات الغازية (الكازوز)، إضافة إلى قطع صغيرة من الزجاج، كي يصدر عنها صوت خشخشة النقود؛ فيُقال إن فلاناً يمتلك نقوداً كثيرة وإن جيبه مملوءة بالنقود، ولذلك تراه أكثر الناس حركة في الدبكة كي يُسمِع المتفرجين أو الذين يدبكون بجانبه صوت خشخشة النقود، وكان همّه أن تسمع الفتيات والنساء هذا الصوت؛ فتراه يهزّ هزّاً في أثناء دوران الدبكة كي يلفت إليه النظر حين يكون في باله إحدى الفتيات، أو حين يصل إلى المكان الذي تكون موجودة فيه، فهو يريد منها بالذات أن تسمع صوت الخشخشة.

كانت تُغنّى الأغاني والأهازيج الشعبية الجميلة في الأعراس، وكان الناس جميعاً يطربون لسماعها ومنها مثلاً:

(ما ريدو ما ريدو ها الأسمراني ما ريدو

لو جابوا لي الذهب ولبَّسوني القصب

ماريدو، ماريدو).

ومنها كذلك:

(يا بو قضاضة بيضا، يابو قضاضة بيضا

تغيَّر عليَّ لونه

ويش أقول يا يمة، ويش أقول يا يمة

قلبي عليك مثل النار

قلبي عليك مثل النار

قلبك عليَّ شلونه

ويش أقول يا يمة ويش أقول يا يمة).

وكذلك كانت النساء تغني في حلقة الدبكة:

(وين ع رام الله، وين ع رام الله

ولفي يا مسافر وين ع رام الله

ما تخاف من الله، ما تخاف من الله

خذيت قليبي ما تخاف من الله).

كانت هذه الأغاني الشعبية القديمة تتردَّد على أفواه الناس، وكانوا يترنَّمون بها بحناجرهم، وبقيت تردَّد من أيام الجولان، في بلدتي فيق وفي

غيرها من بلدات وقرى الجولان إلى أيامنا هذه وقد غنّاها كثيرٌ من المطربين والمطربات من مثل (سميرة توفيق)، و(عبده موسى) من الأردن، إذ إن أبناء المنطقة الغربية من الجولان ومنطقة فيق بالذات التي تسمى (بلاد الجدور) تتبع جغرافياً لمنطقة حوض اليرموك، وكان لهذه المنطقة عاداتها وتقاليدها الواحدة، كما أن لهجتها واحدة.

كانت تلك الأفراح والليالي الـمِلاح تُعقد مساءً على ضوء (اللوكس)، لأن الكهرباء لم تكن تصل إلى البيوت إلا قبل احتلال الجولان بقليل، بل كانت تصل إلى الشوارع فحسب، في كل من (فيق) و(سكوفيا) و(العال)، إذ كانت تُضاء الشوارع فيها مساء وتُطفأ في الصباح، وكان الناس يجهلون كيفية توصيل أو مَدِّ شريط الكهرباء من الأعمدة التي تنير الشوارع ليلاً، وكان العُرْس يستمر ليالٍ عدة إلى يوم الزفة أو يوم الزفاف، وحينئذ يأتي المدعوون إلى دار العريس يحملون أكياس السكر والأرز والبرغل، وكان بعضهم يجلب الذبائح من خراف وغيرها.

في يوم الزفاف - وغالباً ما يكون يوم جمعة - تبدأ الدبكة منذ الصباح إلى وقت الظهيرة، وهو وقت تناول طعام الغداء، ويمكن أن يكون بعض المشاركين قد بات ليلته عند أهل العريس، ولا سيما بعض النساء اللواتي يشاركنَ في إعداد الطعام، وبعد تناول طعام الغداء يُغسِّل العريسَ أصدقاؤه وأقاربه ويلبس ثيابه الجديدة، ثم يُزَفُّ على الأكتاف أو على ظهر فرس مزيَّنة أيضاً إلى ساحة القرية أو إلى ساحة المدرسة. يزفُّونه وهم يغنون ويهزجون بأغانيهم التراثية الجميلة من مثل:

(يا بنيَّة يالّلي بالمصيف

طِلّي وشوفي خيولنا

إنتِ غواكِ شعركِ

وحِنّا غوانا سيوفنا).

وحينما يصل العريس إلى ساحة البلدة أو باحة المدرسة وبعد الغناء والدبكة مدةً ليست بالطويلة كما في السابق، يبدأ ما يسمّى تنقيط العريس، ومثل ذلك يحدث في المكان الذي توجد فيه العروس، وإن كانت العروس في بلدة أخرى يحضرونها على ظهر فَرَس أو جمل، وقد تحدث مشكلة حينما تخرج العروس من بيت أهلها، فقد يمنع شخصٌ ما ذلك، طالباً من أهل العريس مبلغاً يسمى **(عباة الخال)**، وحينئذ لا بدَّ من إرضائه كي يسمح للعروس بالخروج، فتخرج العروس إلى دار العريس، وتغني من خلفها النساء والبنات من الأقارب والصديقات:

(يا بيت أهلنا لا تصدوا عنّا

ورشوا العرايس بالورد والحنّا).

ويغنينَ كذلك:

(طلعت أنا من الدار وما ودَّعت خيّاتي

ودّعت أمي وما ودَّعت خيّاتي).

وكذلك:

حنّيت إيديا وما حنيت أصابيعي

ويا ما حلا النومة بحضين المرابيعي).

وتبقى النساء والبنات يغنين إلى أن تصل العروس إلى دار العريس، فيدخلنَها عشَّ الزوجية ويغنين لها كثيراً من الأغاني إلى أن يصل العريس، فتخرج النساء جميعهنَّ، ما عدا أم العريس وأم العروس وأخواتهما من النساء.

كان العرس يتمُّ بفرح وسعادة، ومن دون مشكلات أو منغّصات بخلاف ما يحدث كثيراً في هذه الأيام.

كانت أيام الأعراس أيام فرح وسرور وأيام بهجة للجميع في البلدة، وكذلك كانت أيام الأعياد؛ عيد الفطر السعيد وعيد الأضحى المبارك، فقد كان الناس قبل يوم العيد بأيام يُعِدّون الحلوى اللذيذة ويشترون لأولادهم وبناتهم الملابس والأحذية الجديدة ويعطونهم بعض المال الذي يسمّى **(العِيدِيّة)**، وكنا نأخذ **(العيدية)** في صباح العيد من الأب والأم والجد والعم والجار والخال وغيرهم، لنشتري ما نريد من الحلوى والمفرقعات، ولا سيما ما كان يسمى يومها **(فلِّين)** الذي يوضع واحدةً واحدة في **(الفرد)** الذي يشبه المسدس، وكنا نخرج - نحن الصغار - إلى الساحات والحارات والشوارع طوال أيام العيد، في حين يعايد الكبار الأهل والأقارب والجيران، وأحياناً كنا نحن ذهب معهم للمعايدة، وكان في بلدتي **(فيق)** أربع عائلات من إخوتنا المسيحيين من عائلة أنطون، وكان إخوتنا المسيحيون يعايدون أغلب أهل القرية في عيد رمضان السعيد وعيد الأضحى المبارك، كما كان أهل البلدة يعايدونهم في أعيادهم المسيحية، وكان الحب والود والاحترام بين سكان البلدة الواحدة صادقاً ومتبادلاً وصادراً من أعماق النفس الإنسانية التي جُبلت على الخير والمحبة والسلام.

كانت تجري في بلدتي فيق أيام فرح فيها كثير من المسرة لأهل البلدة وسكانها ألا وهي أيام الاحتفالات بالمناسبات الوطنية خاصة والقومية كل عام وكان أهمها جميعاً العروض العسكرية في مناسبة عيد الجيش العربي السوري الذي يصادف ٣١ من آب في كل عام، أو في عيد ثورة الثامن من آذار، أو في مناسبة عيد الجلاء في السابع عشر من شهر نيسان من كل عام، ففي هذه المناسبات كانت تجري في بلدتي عروض عسكرية لمختلف صنوف الأسلحة والقطاعات العسكرية وكان يشارك فيها طلبة في المدارس الإبتدائية والإعدادية والثانوية ولم أشاهد أنا شخصياً أي عرض يشبه تلك العروض في أي مكان حتى الآن.

كان العرض العسكري بكل مشاركيه في كل مناسبة من هذه المناسبات يبدأ منذ الصباح نحو الساعة العاشرة صباحاً، وكان العرض ينطلق من أول البلدة شرقاً من مركز البريد متجهاً غرباً إلى مفرق طريق **(سكوفيا)**، وكانت الوفود تتجمع عند البريد، إذ إن الطريق الرئيس الذي سوف يمر عليه العرض من هناك هو طريق واسع مستقيم ويقسم البلدة إلى قسمين شمالي وجنوبي، وكان الناس يتجمعون قبل بدء العرض على أطراف هذا الشارع الرئيس في البلدة، وكان أكثر أهل البلدة يجلسون على أسطح المنازل التي تقع على أطراف الشارع منتظرين بشغف وتلهُّف بدء العرض العسكري، ولو أنك فتَّشت بيوت القرية فلن تجد فيها إنساناً لا رجلاً ولا امرأة، فجميعهم ذهبوا ليشاهدوا العرض، فإذا بدأ العرض يكون أول المشاركين طلبة المدارس الإبتدائية ثم الإعدادية والثانوية، وتراهم يهتفون بالشعارات الوطنية والقومية ويحملون الأعلام واللافتات التي تعبِّر عن تلك المناسبة، وحينها تبدأ النسوة المتجمّعات على ظهور الأسطحة أو على جانبَـي الطريق

بالزغاريد والهتاف أيضاً، وقد كُنَّ يهتفنَ مثل ما يهتف الرجال حولهن أو مثل ما يهتف المشاركون في العرض.

تمر الوفود تباعاً بدءاً بطلاب المدارس والقيادات والمسؤولين في الدولة ووجهاء البلدة و(المخاتير) من بلدتنا ومن القرى المجاورة، ثم تبدأ فرق من جيشنا العربي الباسل المشكَّل حديثاً بعد الاستقلال بالمرور، فتتالى الصفوف والأرتال من صنوف الأسلحة بالمرور ويشتد الغناء والهتاف والزغاريد وتتعالى الأصوات إلى أن تصل إلى عنان السماء ليسمعه الصهاينة شرق بحيرة طبريا، وكانت تمر في العرض قطعات من المدفعية والدبابات والعربات المصفحة، وهي تمشي الهوينى، ولا تنقطع الزغاريد، بل كانت تعلو ويشتد الهتاف أكثر فأكثر فخراً واعتزازاً بجيشنا وقوته وقوة أسلحته، وكان الهتاف والزغاريد أشد ما يكون حينما تمر آخر قطعة من قطع جيشنا الأبيّ في العرض، ألا وهي فرقة من المغاوير، وفرقة المغاوير هي مجموعة من الرجال الأقوياء جداً والمدرّبين تدريباً جيداً جداً، فأنتَ ترى ذلك في بنيتهم الجسدية ومشيتهم في العرض، إذ كانوا يهرولون ويهتفون ويزمجرون وهم يرتدون اللباس العسكري المموَّه كما هو لباس جيشنا اليوم، ومازالت صورة فرقة المغاوير مطبوعة في ذاكرتي إلى اليوم وهم يهرولون بخطا متقنة، بدقة متناهية، مشمَّرين عن سواعدهم السمراء وعضلاتهم المفتولة، مزمجرين بصوت هدّار يهز المشاعر ويحرك الأحاسيس. إن مشيتهم وأصواتهم كانت تجعل الإنسان يشعر بالقوة والعزة والإباء والفخر وكان ذاك المشهد يغرس في صدر كل من يشاهده حقيقة أننا أمة لن تموت ولن يضيع حقها في أرضها وحدودها وكرامتها واستقلالها مهما طال الزمن، فالحقيقة المؤكدة والثابتة تقول: لن يضيع حق وراءه مطالب.

وبعد انتهاء العرض تبقى ذكراه في القلب وتبقى صورته في الذهن والمخيلة فلا تُنسى، ويبقى ذاك العرض إلى مدة طويلة حديث الناس كباراً وصغاراً في مجالسهم وسهراتهم وتجمّعاتهم إلى أن يحين موعد العرض التالي في مناسبة قادمة.

كانت أيام العروض العسكرية في تلك المرحلة قبل احتلال الجولان الحبيب أيام فرح وسرور مغروسة في الذاكرة مع أيام الأعياد والأعراس مثلما زُرعت في الأرض التي اغتصبها الصهاينة ومازالت تنتظر الإشارة من النشامى لتشارك في الهجوم على المحتل الغاصب وتطرده من أرضنا الحبيبة وتطهرها من نجسه ودنسه، وإني على ثقة عمياء أن ذلك اليوم سيأتي مهما طال الزمن شاء من شاء وأبى من أبى، وأرجو أن يكون هذا اليوم قريباً، وأستحضر هنا قول الشاعر:

بلادي، وإنْ جارتْ عليَّ، عزيزةٌ وأهلي، وإن ضَنُّوا عليَّ، كِرامُ

إنني أذكر مظهراً آخر من مظاهر الفرح والسرور كان يجري في بلدتي فيق ألا وهو الأمسيات الغنائية والعروض المسرحية التي كانت تجري على مسرح ثانوية فيق للبنين مساء وتستمر إلى منتصف الليل أحياناً، وكانت هذه الأمسيات الغنائية والعروض المسرحية تقام في المناسبات التي كانت تجري فيها العروض العسكرية على الأغلب.

كان طلاب ثانوية فيق يعرضون مسرحيات تتحدث عن واقع حياة الفلاح والمزارع الكادح وحياته الاجتماعية والنفسية والثقافية، وأحياناً تنتقد

بعض العادات والتقاليد البالية التي تتعارض مع واقعه ومستقبله، وكنتُ لا أتغيب عن مثل هذه المسرحيات أبداً مهما كانت الظروف، لأن الأمسيات الغنائية التي كانت تجري على مسرح ثانوية فيق كانت رائعة جداً، وأتذكَّر من تلك العروض شابّاً كان يغني لنا أغاني المطرب فهد بلّان اسمه **(إبراهيم الببوري)** وهو صاحب صوت رخيم وشجي، كما كان هناك أيضاً شاب آخر يعزف على العود اسمه **(حسين الجعثوني)**، وأذكر أن كلاً من إبراهيم الببوري وحسين الجعثوني ليسا من سكان فيق الأصليين، بل هما من الوافدين الذين سكنوا البلدة، كما أذكر أن التمثيل في تلك العروض المسرحية والأمسيات الغنائية كان محصوراً على الذكور فحسب دون الإناث، وحتى لو كان هناك دور لامرأة في المسرحية فقد كان يؤديه أحد الشباب متنكّراً بلباس المرأة ومقلِّداً صوتها.

في أثناء الغناء أو في أثناء العرض المسرحي كان يسود الصمت المطبق لكي يتسنى للجميع الاستماع إلى الأغاني أو لما يُقال في العرض المسرحي، لأنه لم تكن في تلك الأيام مكبّرات الصوت موجودة، وإن وجدت فلن توجد في ثانوية فيق لضعف الإمكانات حينها، وكنا حينما نعود إلى البيت بعد انتهاء العرض المسرحي أو الغنائي نردد ما غناه إبراهيم الببوري، وغالباً ما كان يتبع العرض المسرحي غناء لإبراهيم الببوري من أغاني المطرب المعروف فهد بلان.

لقد كانت أيام العروض المسرحية والأمسيات الغنائية التي كانت تجري في ثانوية فيق للبنين شائقة وهادفة ولم تكن للتسلية ولا لإضحاك

الناس، بل كانت تدعو إلى نبذ فكرة أو عادة سيئة أو لزرع فكرة أو عادة محببة مفيدة، وكان الأطفال والشباب من أهل البلدة أو من أهل القرى المجاورة يحرصون على الحضور حينما يعلمون بموعد إقامته.

لقد كانت أيام السرور والأفراح والليالي الملاح كثيرة في بلدتي المحتلة فيق الحبيبة وأرجو أن تعود ليعيش أحفادي وأولادي فيها بصفاء ونقاء وما ذلك على الله بعزيز.

(أيام الانتخابات البرلمانية)

شُكِّل (البرلمان) في سورية قبل الاستقلال، وقد كانت فرنسا المحتلة لبلادنا آنذاك مسيطرة عليه، فلم يكن حرّاً بما فيه الكفاية، وقد اعتدى الفرنسيون في ٢٩ أيار على هذا (البرلمان) وقتلوا حرّاسه، وهي حادثة معروفة لدى جميع أبناء سورية، ولا سيما لدى سكان دمشق العاصمة، وموثّقة تاريخياً.

بعد الحصول على الاستقلال عن فرنسا بفضل تضحيات الأبطال الشجعان من السوريين الذين ضحّوا بدمائهم الطاهرة الزكية، أُجليَ المستعمر الفرنسي البغيض عن أرض سورية الأبيّة، وتم تشكيل (برلمان) وطني، فكان في نهاية كل دورة من دوراته تجري انتخابات للمرشحين الذين كانوا يسعون للفوز بعضويته وبمقعد من مقاعده، ونحن في منطقة فيق التي كانت تسمّى منطقة (الزَّوِيَّة)، كان يترشح عنها للحصول على عضوية (البرلمان) شخص اسمه (أحمد الحسين)، وكان أحمد الحسين يسكن في قرية (كفر الما)، وهي قرية تقع إلى الشرق من منطقة (فيق) القريبة من (العال) ولا تبعد عنها كثيراً، إذ كان بإمكان المرء القدوم إلى فيق والعودة منها سيراً على الأقدام، ولأنَّ جدّي (موسى المقبل / أبو علي رحمه الله) من وجهاء بلدة فيق، التي هي مركز المنطقة، ففيها كانت توضع صناديق الاقتراع، وكانت تربط بين جدي (موسى المقبل) و(أحمد الحسين) صحبة وقرابة ونَسَب، وبما أنهما كانا من أهل الخير والكرم ومن المحبين لوطنهم،

فقد كان جدي يدعم المرشَّح (أحمد الحسين) ويقيم له دعاية انتخابية حسب الـمُستطاع في تلك الأيام، وذلك عن طريق الزيارات والمضافات، ولأن (موسى المقبل) يقف في صف (أحمد الحسين) فإن كل عشيرة (الذيابات) ومن يقف في صفّها من القرى المجاورة، إضافة إلى أهل البلدة نفسها سوف ينتخبون (أحمد الحسين) - علماً أنه أهلٌ لذلك لما يمتلكه من كفاءة ومن حسن اضطلاع بأعباء الأمور بالنسبة إلى ما يحتاج إليه مَن يمثِّلهم من ناخبين بعد أن يكون قد أصبح عضواً في (البرلمان) - ومن أجل ذلك كان الناس يأتون إلى فيق سيراً على الأقدام وعلى ظهور الدّواب أو محمّلين في جرّرات زراعية (تراكتورات)، وكانوا يهتفون (أحمد الحسين نايب عَ الزَّوية)، إذ إن فيق كانت تسمّى بـــ (الزَّوِيَّة) لأنها تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من أرض الجمهورية العربية السورية بلدي الحبيب الغالي.

في يوم الانتخابات كانت تُقام الدّبكات في كل ساحة وترتفع أصوات الغناء والأهازيج وتُذبح ذبائح كثيرة لتُقدَّم طعاماً للغداء بعد الاقتراع، وأيضاً كانت توضع فيه (المناسف) من الأرز أو البرغل وعليها قطع اللحم أكواماً، كما يحصل في أي عرس حقيقي، بل أكثر من أي عرس بكثير، وكانت المناسف توضع في كرم زيتون لنا يقع غربي الطريق، وأنت تتجه من فيق إلى قرية (سكوفيا)، لأن هذا الكرم قريبٌ من إدارة المنطقة، وكانت توضع المناسف وتبقى هناك من دون أن يبقى أحدٌ عندها إلّا من يحرسها من الكلاب والقطط التي تشمُّ رائحة اللحم من بعيد فتنجذب إليه، وكان كلُّ من يريد أن يقترع يذهب إلى كرمنا فيتناول طعام الغداء الدسم المعزَّز باللحم، وبعد أن يشبع يفرك يديه بالتراب والعشب، أو بلحيته لتنظيفهما

من الدَّسم، وبعد أن يشبع يغادر إلى بيته، سواء كان داخل القرية أم خارجها إذا كان المقترع من أهل القرى المجاورة.

كان يوم الانتخابات في بلدتي فيق يوم فرح وسرور، كما كان يوماً لقضاء حاجات كثيرة لبعض من الناخبين من القرى المجاورة، الذين لم يتسنَّ لهم القدوم إلى فيق قبل يوم الاقتراع، فمن كان يريد شراء بعض الحاجات كان يشتريها في ذلك اليوم مثل: الألبسة أو الأحذية أو الأدوية أو بعض الأدوات التي يحتاج إليها الفلاح من مثل المنجل أو الفأس أو سكَّة الحراثة أو غيرها، ومنهم من كان يأتي بالقمح إلى الطاحون ليطحنه أو ليحوِّله إلى برغل، مستغلاً وجوده في فيق في يوم الاقتراع، ومنهم من كان يستغل يوم الاقتراع لزيارة قريب أو صديق كان يرغب في زيارته منذ زمن بعيد ولـمّـا تسنح له الفرصة.

لقد كانت بلدتي (فيق) قرية ومدينة في آنٍ معاً، أي إن لها من صفات هذه وتلك ومزيّاتها، فكان فيها مثلاً محلّان للحِدادة، وهذا أمر ضروري جداً ومهم بالنسبة إلى الفلاحين، كما كان فيها أطباء وصيدلية فيها مختلف أنواع الدواء، ومحلّات تجارية ضخمة فيها كل ما يطلبه ويحتاج إليه سكان فيق وما حولها، وكانت معاملة أصحاب هذه المحلّات والمهن سهلة وميسَّرة مع الزبائن، إذ كان يتمّ أغلب الشراء بالدَّين إلى موعدٍ ما أو إلى حين تحصيل أرباح غِلال موسم من مواسم الحصاد أو قطاف الزيتون وعصر الزيت أو موسم بيع الخِراف أو بيع الصوف والأغنام أو بيع منتجات الأغنام والأبقار من زبدة وسمن وجبن وغير ذلك.

هذه صورة موجزة عن الحياة وطبيعتها في بلدتي فيق دون الخوض في التفاصيل اليومية الصغيرة، فالحياة كانت سهلة وبسيطة ومريحة وجميلة جداً، وقد سرقها منها الصهاينة باحتلالهم أرضنا في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م، ولكني أقول لهؤلاء الصهاينة المغتصبين اللصوص: إن للباطل جولة وإن لكلِّ حصان كبوة، كما أنني أؤكد لهم أن أرضنا المحتلة ستعود إلينا، لأننا أهلها وأصحابها منذ الأزل، فهي تعرفنا ونحن نعرفها جيداً جداً، وأننا كلًّا منا - نحن والأرض - يعشق بعضنا الآخر ويحسُّ به ويفهم لغته، في حين أنتم أيها الصهاينة اللصوص: غرباء ... غرباء ... غرباء ... فلترحلوا عنا وعن أرضنا.

(الأسرى)

تعيش الأمة العربية من المحيط على الخليج في أراضٍ واسعة، مساحتها كبيرة، وفوق ترابها كثيرٌ من الخيرات، ولا سيما خيرات الزراعة ذات الغِلال التي لا تعدّ ولا تُحصى، وفي جوفها ثروات ومعادن كثيرة، غالية الثمن، ومناخاتها المتنوعة تجعلها حبلى بالخيرات، وأما موقعها فلا مثيل له، إذ تجري على أرضها أنهار كثيرة، ومنها نهر النيل أطول نهر في العالم، ولا يفوتنا ذِكر أهمية نهرَي الفرات ودجلة، ونهر أم الربيع في المغرب العربي، وغيرها من الأنهار الصغيرة في شرق الوطن العربي وغربه، ولسنا ننسى كذلك البحيرات الطبيعية والاصطناعية التي تكوَّنت خلف السدود التي شيَّدها العرب حديثاً، والينابيع وعيون الماء، إضافة إلى وفرة المياه الجوفية في باطن الأرض، والأهم قناة السويس التي تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، والتي اختصرت طريق المِلاحة البحرية عمّا كان معروفاً آنذاك، وفي جوف أرض العروبة كذلك كثيرٌ من المعادن وأهمها الذهب والحديد، وفيها مصادر الطاقة التي لا غنى للعالم عنها وعلى رأسها البترول والغاز الطبيعيّان، وغير ذلك من الخيرات والموارد كثير، فحدِّث ولا حرج، وكذلك إن أهم ما يميز أرض العروبة هو موقعها في قلب العالـمَين القديم والحديث.

إنَّ كل هذه الخيرات والثروات والمزيّات جعل أرض العروبة مطمعاً للطامعين من شعوب الأمم الأخرى منذ الأزل، فكانت دول الشرّ في العالم تخاف من قوة الأمة العربية، لأنها أمة حيّة، لها حضارة وتاريخ مجيد مشهود،

لذلك عملت دول الشرّ في العالم على جعل هذه الأمة في حالة ضعف، كما عملت على إبقائها تحت السيطرة، وكان أول ما فكرت فيه هذه الدول وعملت عليه ليتحقق لها ما تصبو إليه هو تقسيم الأمة العربية إلى دول كثيرة ومتعددة وزرع التفرقة وتغذية النعرات العِرقية والمذهبية فيما بينهم، فاحتلّت دول الشرّ أرض العرب وقسَّمتها إلى دول، حتى إنها سعت فيما بعد إلى تقسيم الـمُقَسَّم وتجزيء الـمُجزَّأ ليضعف أكثر فأكثر، كما أن دول الشر والعدوان أخذت تقتطع من أرض العروبة وتعطي للآخرين منها، فكانت هذه مصيبة المصائب والطامة الكبرى التي حلَّت بالأمة العربية، وإن أهم ما قامت به تلك الدول وأخطره على الأمة العربية هو إعطاء فلسطين للصهاينة لإقامة وطن لهم فيها على حساب سكانها الأصليين وعلى حساب الأمة العربية كلها، والقصة معروفة لكل الناس من عرب وغير عرب فلا أريد أن أزيد وأُعيد فيها.

لقد غرس الطامعون الأشرار خنجراً في قلب الوطن العربي، وشرَّدت دولة الأشرار الصهاينة؛ دولة العصابات المسنودة من كل قوى الشر في العالم؛ الدولة المزعومة (إسرائيل) سكان فلسطين في أصقاع الأرض؛ فمنهم مَن أقام في الدول العربية المجاورة، ومنهم مَن ذهب ليعيش في سائر دول العالم الأخرى، وقد قتلت العصابات الصهيونية أعداداً لا تُحصى من الفلسطينيين الأبرياء على مرأى ومسمع العالم كلّه، ولم يميز الصهاينة بين امرأة وشيخ وطفل، ولا بين المريض العاجز أو الإنسان السليم.

أُعلن عن قيام دولة الشر؛ دولة (إسرائيل) في السابع عشر من شهر أيار عام ١٩٤٨م، واعترفت بها كل الدول التي لا تعرف الحق أو التي

تعرفه وتحيد عنه، وقد اشترك هذا الكيان أو هذه الدولة المصطنعة بعد الإعلان عن إنشائها بمدة وجيزة في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، وبعد ذلك بقليل اعتدت على كل من سورية والأردن ومصرن واحتلّت الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة وصحراء سيناء والجولان الحبيب، ولكنها خرجت من صحراء سيناء بموجب معاهدة قيَّدت بها مصر الشقيقة وحيَّدتْها عن الصراع العربي الإسرائيلي، ومن ثم خرجت من قطاع غزة بفعل المقاومة الشعبية القوية هناك، كما أنها خرجت مدحورة مهزومة من جنوب لبنان بجهد المقاومة وتضحيات الشهداء، ولكنها لم تخرج من الضفة الغربية، بل ضمَّت مدينة القدس إلى كيانها المصطنع، وكذلك لم تخرج من أرض الجولان الحبيب، بل أعلنت ضمَّه إليها أيضاً، وهذه الدولة المزعومة (إسرائيل) دولة عصابات وُجدت أصلاً كي تعتدي وتتوسَّع وتقضم الأراضي وتُسكِنَ المستوطنين فيها، وهؤلاء المستوطنون وقحون ومتغطرسون، وقد حدَّثتني عمتي (تَـمَام موسى المقبل)، وهي العمة الوحيدة لي رحمها الله أنَّ مجموعة من الصهاينة تقدَّر بأربعة عشر صهيونياً ما بين رجل وامرأة دخلوا الأراضي العربية السورية من جهة الوادي الواصل إلى بلدة فيق من جهة الغرب، قادمين من شرق بحيرة طبريا. لقد قَدِموا سيراً على الأقدام وعبروا الحدَّ الفاصل بيننا وبين أرض فلسطين الطاهرة، وتوغَّلوا في أرضنا مسافة طويلة في وضح النهار، دون أن يحسبوا حساباً لأحد.

كانوا يرتدون ملابس مدنيّة رجالاً ونساءً، فرآهم الناس من أهل القرى المجاورة، وكان أول من رآهم منذ لحظة دخولهم وتجاوزهم الحدود إلى أرضنا الطاهرة هم رعاة الأغنام الذين كانوا يرعون أغنامهم في الأودية

أو في سفوحها، فأبلغوا عنهم (المخاتير) والشرطة والجيش، وهبَّ الجميع لإلقاء القبض عليهم، وما إن وصلوا إليهم حتى كان بعض الفلاحين و(الرعيان) قد حاصروهم وألقوا القبض عليهم جميعاً، ولم يكن مع هؤلاء الفلاحين و(الرعيان) إلّا العصي، فساقوهم إلى مديرية المنطقة في بلدتي فيق، وبعد أن فتَّشوهم واستجوبوهم، أتوا بهم جميعاً ـــ كما حدّثتني عمتي ـــ إلى دارنا، ووضعوهم أمانة لدينا وتحت مسؤوليتنا إلى أن يُبَتَّ في أمرهم، فجمع (موسى المقبل) أولاده وأحفاده وأقاربه وقال لهم: إن هؤلاء أسرى ويجب المحافظة عليهم ومعاملتهم معاملة حسنة، لأن مبادئنا وديننا لا يسمحان لنا بالإساءة إليهم أبداً، وشدَّد جدي على حفظ كرامتهم وصون أعراض النساء منهم، وعهد إلى الذين يثق بهم حراستَهم، ومنع أيّ منهم من الهروب.

قالت لي عمتي: إن جدي أخلى مَضافته ووضع فيها الرجال من هؤلاء الأسرى الصهاينة، كما أنه جعل غرفة أبي وزوجته وأولاده خاصَّةً بالنساء، وسكن جدي وأبي وأمي إضافة إلينا نحن الأولاد الصغار في غرفة المؤونة، وهكذا دامت الحال شهراً كاملاً. قالت لي عمتي (تَمَام): لقد شدَّد جدك الحراسة عليهم فأخرج كل السلالم والحبال من الدار نهائياً، ووضع الحراس من أولاده وأقاربه فوق الأسطحة، ووضع شخصاً يحمل سلَّماً يستخدمه لإنزال الذين على الأسطحة حين تبديل الحراسة، وهو شخص مسؤول عنهم. كان المسؤول عن السلّم يمتلك ساعة يضعها في يده ويستعملها في تحديد وقت بداية الحراسة ونهايتها بدقة، فكان يأمر من يجيء دوره في نوبة الحراسة بالصعود والانتظار حتى ينزل مَن جاء دوره في بدء نوبة الحراسة، ثم يفعل الشيء نفسه مع الحرّاس الآخرين، وبعدها يأخذ السلّم ويذهب إلى داره.

كان بيتنا مُحاطاً بالغرف من جميع الجهات، وهي غرفٌ عالية الجدران ليس لها منفذٌ أو طريق إلا من الباب الرئيس، الذي يوجد في مدخله مجموعة من شباب عائلتنا الأقوياء الأشدّاء.

كان الأسرى يستيقظون في وقت متأخر من الصباح، فيغسلون وجوههم وأيديهم ويجدون طعام الفطور جاهزاً، ويا له من طعام لذيذ! من العسل والحليب والزبدة واللبن والبيض المقلي بالسمن العربي والخبز الساخن من صنع نساء البيت، وتقول عمتي: كان الأسرى يأكلون بشراهة لطيب الطعام وطيب أهله، وفي وقت الغداء يُقدَّم للأسرى طعام أكثره من لحم الدجاج، أو الأرانب التي كانت تَعِجُّ بها دارنا، أو من لحم الغنم، أو الماعز، وحينما يأتي المساء ويحين وقت العشاء كان يُقدَّم للأسرى اللبن والحليب والجُبن وكثير من أنواع السلطات والفاكهة.

كان بعض (الدَّرك) يأتون كلَّ يوم صباحاً لتفقدهم ويفعلون الشيء نفسه في المساء، وكان طبيب المستوصف يأتي بعد الظهر أيضاً ليسأل عن أحوالهم الصحية، وكان الطعام حينئذ يُقدَّم للأسرى وحرّاسهم ولكل مَن يحضر من الناس الآخرين.

قالت عمتي: لقد تدخَّل الصليب الأحمر الدولي في قضية هؤلاء الأسرى، فأحضروا مترجماً يتقن العبرية، لأن الأسرى جميعهم ليس فيهم من يتكلَّم اللغة العربية أبداً، وبعد محادثات واستجوابات كثيرة وطويلة، تأكدوا أنَّ هؤلاء الأسرى هم عبارة عن مجموعة سياحية كانت في رحلة، وقد قطعوا الحدَّ الفاصل بين سورية وفلسطين دون قصد أو معرفة منهم، والحقيقة أنه لـمّا قامت دولة (إسرائيل)؛ دولة الشر، وقبل قيامها، لم تكن

هناك حدود بين سورية وفلسطين، ولم تكن بينهما موانع ولا حقول ألغام ولا حتى شريط شائك، فقد كانت أرضاً واحدة وشعباً واحداً، له عادات وتقاليد وأعراف واحدة، كما أنَّ له لغة واحدة وتاريخاً مشتركاً واحداً، ولم يفرِّق بيننا إلا المستعمرون والطغاة.

كان الأسرى يتعجَّبون حتى من قِطَع الصابون التي يغسلون بها أيديهم ووجوههم. إن قِطَع الصابون تلك مصنوعة من بقيا زيت الزيتون البلدي الذي لا مثيل له، وتقول عمتي رحمها الله: إنها كانت شابّة حينما جيء بالأسرى إلى دارنا، وإنها كانت ترى الرضا والاطمئنان ممزوجَين بالفرح والسرور لـمَا يلاقيه الأسرى من عناية ورعاية واحترام، وكان ذلك يبدو في عيونهم وملامحهم وتصرفاتهم، وتضيف عمتي: إنها لم تكن ترى أيّاً من الأسرى رجالاً ونساءً متوتراً أو قلِقاً أو منزعجاً بسبب وجوده في دارنا، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون ويدركون تماماً أنهم أسرى.

في آخر يوم لوجود هؤلاء الأسرى في دارنا، ومنذ الصباح حضر رجال (الدَّرك) ومعهم رجالٌ من الأمن والجيش والصليب الأحمر في سيارات، ومعهم أيضاً حافلة فارغة ليس فيها إلا السائق ومترجم، وطلبوا من الأسرى الصعود إليها، وكان المترجم يسألهم: هل لهم حاجة؟ هل أساء إليكم أحد؟ هل فَقَدَ أحدهم شيئاً، فكانوا يقولون: لا.

انطلقت الحافلة قبل الظهر تحمل الأسرى إلى (جسر بنات يعقوب)، وهو جسر في شمالي الجولان كان يصل فيما بين سورية وفلسطين، ودخلوا من هناك برفقة الصليب الأحمر إلى فلسطين المحتلّة؛ فانظر أخي القارئ إلى طريقة معاملتنا للأسرى، ثمَّ قارِن كيف يعامل الصهاينة الأشرار المغتصبون

أسرانا وأسرى الأمة العربية، ولا سيّما الأسرى الفلسطينيين، إنَّ أول شيء يفعله هؤلاء مع الأسير العربي هو إذلاله وأخذ كل ما معه ومصادرة كل ما يملك، ثم تعذيبه تعذيباً شديداً بالضرب والتنكيل ومنعه من النوم وعدم تقديم الطعام المناسب أو الكافي له، كما أنهم يحرمون الأسير من لقاء أهله أو غيرهم، ولا يُقدِّمون له الرعاية الصحية المطلوبة ولا حتى أبسطها، ويتركونه يعاني المرض والبرد وقلَّة الغذاء إلى أن يفارق الحياة.

إنَّ أغلب أسرانا العرب لدى عصابات الشر الصهيونية لا ذنب لهم، وقد أُسِروا واعتُقِلوا اعتقالاً تعسُّفيّاً. إنَّ الصهاينة لا يرعون فينا إلًّا ولا ذمّة، وإنَّ همَّهم الوحيد هو القضاء علينا والاستيلاء على أرضنا وخيراتها ومقدّراتها والتوسع فيها دائماً. هذا همُّهم وهذا ديدنهم، فانظر أخي القارئ وقارن وفكِّر وحدِّد موقفك، إذ يجب أن نعلم جميعاً أن التاريخ لم يرَ أرحم وأصدق من العرب، فالأمم تُقاس بحضارتها وتاريخها ومبادئها الأخلاقية والإنسانية، وهؤلاء الصهاينة الأشرار بكيانهم المصطنع لا يملكون شيئاً من هذا كله، ولذا فهم وكيانهم المصطنع إلى زوال حتماً.

(العَشِّيُّ)

ذكرت سابقاً أن فيق مدينةٌ وريفٌ في آنٍ معاً، ولذا فقد كان فيها كثيرٌ من محلّات الألبسة والأقمشة والأحذية ومحلّات الخضار والفواكه وغيرها، حتى إنه كان موجوداً فيها آنذاك إستوديو للتصوير الفوتوغرافي، وإن كثيراً من أصحاب المحلّات لم يكونوا من عائلات منطقة فيق، وكان أغلبهم من دمشق من أهالي حي الميدان؛ من مثل أولاد **(العطّار)** وأولاد **(دعبول)** وأبناء **(عزّات)**، وكان من بين أصحاب المحلّات رجلٌ يُقال له **(أبو عجيب)**.

جاء أبو عجيب إلى بلدتنا فيق في أيام الوحدة بين سورية ومصر، ولكنني لا أدري على وجه الدقّة متى سكن بلدتنا، المهم أني منذ وعيت ودخلت المدرسة وأنا أعرف محل أبي عجيب هذا. كان محلُّه في الشارع الرئيس في مدينة فيق، وكان يصنع الفلافل والحمّص، كما أنه يتقن صناعة الحلويات مثل **(العوّامة والمشبَّك والكنافة والشعيبيات)**، وقد كان في محلِّه صالة بحجم غرفة يضع فيها تلفازاً كبيراً على طاولة في صدر الصالة، وكان لديه بعض الطاولات مع عدد من الكراسي يستعملها في النهار لخدمة الزبائن الذين يدخلون محلّه طلباً للطعام من مثل شطيرة **(سندويشة)** الفلافل أو صحن الحمّص أو الفول المشبعَين بزيت الزيتون الأصلي، إضافة إلى صحن البيض المقلي بزيت الزيتون أو السمن العربي أو المقلي بالزبدة البلدية وذلك حسب طلب الزبون، وكان أرخصها صحن البيض المقلي بزيت الزيتون، ولم يكن الفارق بينها كبيراً، بل قروشاً معدودة قليلة.

كنت أنا وبعض رفاقي نذهب مساءً إلى محل أبي عجيب لنشاهد التلفاز، ولا سيما برامج المصارعة الذي كان يُبَثُّ على محطة الشرق الأوسط مساء كل يوم أحد، لنشاهد المصارعَين اللبنانيَين الأخوين (جان سعادة) و(أندريه سعادة)، وما زلت أحفظ اسميهما وأتخيَّل شكليهما في ذاكرتي حتى الآن.

لم يكن الدخول إلى محلِّ أبي عجيب بالمجّان، فقد كان يأخذ خمسة قروش (أي ما يساوي فرنكاً) مقابل أن نشاهد التلفاز مدَّةَ ساعتين فحسب، وكان يضع تسعيرة وهي نصف فرنك أي قرشان ونصف لكل ساعة من المشاهدة التلفازية، فكنا نشاهد التلفاز بحسب ما ندفع إليه من نقود، فأنت إذا أردتَ أن تشاهد التلفاز مدة ساعة فعليك أن تدفع لأبي عجيب (نصف فرنك)، وإذا أردت أن تشاهد مدةَ ساعتين فيجب أن تدفع له (فرنكاً) كاملاً، وهكذا... وكانت التسعيرة التي يضعها أبو عجيب غير متعلّقة بالزمن والمدَّة فحسب، بل كان هنالك شرطٌ آخر عليك تنفيذه؛ ألا وهو: عليك أن تشتري على الأقل بـ (فرنك) آخر - غير الـ (فرنك) الذي دفعتَه من أجل المشاهدة - قرصَي فلافل مع رغيف من خبز الفرن الذي يشبه أفراننا في هذه الأيام، وكنت أنا لا أحبُّ مثل هذا الخبز، فقد كنتُ أفضِّل خبز أمي عليه.

كان أبو عجيب ومحلُّه معروفَين على مستوى المنطقة كلِّها وليس في فيق وحدها، فكلُّ مَن يأتي إلى فيق لشراء ما يحتاج إليه من أحذية وأقمشة وملابس وغيرها، أو كل مَن يأتي إلى الطبيب أو لزيارة أقاربه أو أصدقائه، فلا بدَّ من أن يمرَّ عل محل (أبو عجيب) لشراء شيء من الحلويات لأهله بوصفها هدية يقدِّمها لشخص ما، أو قد يكون أحد الناس قد أوصاه بإحضار شيء من هذا، وكان ذلك أمراً مألوفاً بين الناس في تلك الأيام.

كان أبو عجيب في الأربعين من عمره تقريباً، متوسط الطول وأصلع الرأس تقريباً، جسمه أقرب إلى البدانة منه إلى النحافة، وكان دائماً جِدِّيّاً فلم أره مرة يضحك، وكان يقوم بأعمال محلِّه بمفرده، ما عدا بعض المساعدة من بعض أبنائه، وكنا إذا جئنا ودخلنا محل أبي عجيب نجلس على الأرض صفوفاً ومن يتكلَّم أو يصدر صوتاً يُخرجه أبو عجيب من محلِّه. لقد كان (أبو عجيب) صارماً في كلامه وأوامره التي كان يلفظها بلهجته الشامية المحبَّبة.

إنك إذا أردتَ الدخول إلى محل أبي عجيب فلا بدَّ لك من أن يكون معك عشرة قروش (أي ما يساوي فرنكين) على الأقل لتشاهد برنامج المصارعة في التلفاز يوم الأحد، وكان هذا مبلغاً كبيراً بالنسبة إلينا نحن الصغار، وكنت أنا الولد الصغير أُبلي بلاءً حسناً في مساعدة والدتي - رحمها الله - في أعمال المنزل، فتعطيني بعض المال فأوفّره حتى يوم الأحد كي أتمكَّن من الدخول إلى محل أبي عجيب، فلقد كنتُ أهزُّ السرير لإخوتي الصغار، وأعجن عنها العجين من أجل أن تعطيني بيضة أو بيضتين، فأبيعهما وبثمنهما أستطيع مشاهدة ما يعرضه التلفاز في محل أبي عجيب، لم يكن أحدٌ يعطينا نقوداً من أهلنا إلا في يوم العيد؛ عيد الفطر السعيد أو عيد الأضحى المبارك.

في إحدى المرات دخلت أنا وبعض أصدقائي محلَّ أبي عجيب، وكان يوم أحد لنشاهد برنامج المصارعة على التلفاز، وكان أبو عجيب واقفاً عند الباب عابساً متجهِّم الوجه، فقال لكل واحد منا: كم ساعةً ستشاهدون التلفاز؟ أجبتُه أنا عن نفسي: سأشاهد ساعتين، فقال: هاتِ خمسة قروش (فرنكاً)، ثم أردف: هل معكَ ثمن الطلبات؟ قلت له: نعم، فقال: ادخل

واجلس على الأرض هناك، فدخلت وجلست حيث أشار، وهكذا فعل مع جميع أصدقائي، وكنتُ قد أحضرت رغيف خبز من بيتنا بدلاً من الخبز الذي يبيعه لنا، وحينما أراد أن يأخذ ثمن الطلبات التي سيقدمها لنا، أعطيته خمسة قروش وفرنكاً وقلت له: أريد بها فلافل وحسب، ولا أريد رغيف الخبز لأنَّ معي رغيف خبز أحضرته من البيت، فقال لي: لماذا أحضرت معك رغيف خبز من البيت؟! ومن ثم امتعض وكشَّر عن أسنانه وشتمني وقال: "خذ (فرنكك) وانقلع من هون. جايبلي معك رغيف الخبز تبعك وجاي لعندي"، إذن، لمن سأبيع الخبز الذي لديَّ؟! لو فعل الأولاد كلّهم مثلك فالخبز سيبقى لدي إلى يوم غد من دون أن يُباع، ومن ثَـمَّ لن يشتريه أحد وسأخسر ثمنه. قال لي أبو عجيب: هيا اخرج من هنا، فرجوتُه وتوسَّلتُ إليه، لكنه لم يقبل رجائي ولم يكترث لتوسُّلاتي ودفع بي إلى خارج المحل بقوة فسقطتُ على الأرض، ورآني أصدقائي الذين كانوا معي، فضحكوا حينما شاهدوني أسقط على الأرض، فبدأتُ أبكي أمام محلّه، فلم يأبه لي، بل هدَّدني قائلاً: (إذا ما رحت من هون فسأمسح بك الأرض). اعتبرت ما فعله معي أبو عجيب إهانةً لي، ولا سيما حينما أضحك أصدقائي عليّ، كما أنه أخذ مني أجرة ساعتين لقاء مشاهدة التلفاز، ولم أحضر منها إلا نصف ساعة فحسب، ولم يُعِدْ إليَّ الفرنك الذي دفعتُه له، فقررتُ الذهاب إلى البيت وأحضرتُ (النُّقيفة)، وقد كنتُ بارعاً في إصابة العصافير بها، ثم عدتُ إلى أبي عجيب هذا ووقفت بباب محلّه وناديت باسمه، فوقف مستهزءاً بي فرددت له الشتائم التي شتمني بها، وكنت أضع يدي خلف ظهري حاملاً بها (النقيفة)، ثم بعد أخذ وردٍّ بيني وبينه أدرك أبو عجيب

خطأه في حقي وعرف كم هو مخطئ حينما شتمني ودفعني خارج المحل، وأظن أنه وضع في حسبانه ما سيحصل إذا علم أهلي بفعلته التي فعلها، فصار يقول رافعاً يبديه الاثنتين: طيب، طيب. حينها قلت له: خذها من يدي، فصاح الأولاد قائلين: سوف يصيبك، انتبه. وبلمح البصر نَقَفْتُهُ فأصبته في جبهته وكدت أصيب عينه، وهربتُ بسرعة البرق إلى البيت، وكنت مرتاح النفس والبال لأنني أخذت حقي أمام جميع الحاضرين الذين أهانني أبو عجيب أمامهم وجعلهم يضحكون مني، ثم نمتُ ولم أخبر أحداً من أهلي بما حصل معي، وفي اليوم التالي لم أذهب إلى السوق أبداً، إذ أمضيتُ وقتي ألعب في الدار مع إخوتي أو في الحارة مع أصدقائي، ولم أدرِ ما حصل مع أبي عجيب، ولكنني عند المغرب، وأنا داخل الدار، وجدتُ أبا عجيب يدخل دارنا ويحمل على رأسه صينية شعيبيات ونادى من باب الدار على جدي، فقال له جدي: تفضل يا رجل، مرحباً بك، و"يا هلا بالضيف"، فدخل وسلَّم على جدي وعانقه لأنه كان يعرفه سابقاً، إذ كان أولاد عمي يملكون محلًّا للأحذية قريباً من محل أبي عجيب، وعلى ما يبدو أنه سأل الأولاد الحاضرين ساعة حدوث المشكلة بيني وبينه فدلَّه الأولاد وأخبروه مَنْ أكون ومَنْ هم أهلي ومَنْ أنا.

سأله جدي لماذا تضع عصابة على جبهتك، فحكى له أبو عجيب ما حصل بيني وبينه، واعتذر من جدي، فناداني جدي ووبَّخني بشدة، وقال لي: أليس من المعيب أن تضرب رجلاً في مثل عمر أبيك. لا يا جدي، لا تفعل هذا ثانية. ماذا لو أنك أصبتَ عينه؟! هذا لا يجوز يا ولد، هل تفهم؟ أردتُ أن أتكلَّم كي أخبره بحقيقة ما حدث، فمنعني من الكلام

قائلاً لي: اسكت واستسمِحْ من أبي عجيب وقبِّلْ رأسَه؛ ففعلت، ثم قال لي: اجلس يا ولد، فجلست، فمدَّ أبو عجيب يده وأعطاني ثلاثة فرنكات وقال: هيا معي لتشاهد التلفاز، فرفضت، ثم قال أبو عجيب لي أمام جدي: كلما أردتَ الحضور إلى المحل تعالَ ولن آخذ منك شيئاً مقابل ذلك. هل فهمت؟ ومن ثم ودَّع جدي وخرج، وهو يقول: أرسِلوا لي الصينية مع هذا البطل حينما تفرغوا ما فيها من شعيبيات.

بعد عدة أيام أعطتني أمي تلك الصينية، وقالت لي: أوصلها يا بني لأبي عجيب، فحملتُها وذهبتُ إليه، وما إن رآني حتى هلَّل ورحَّب بي وأجلسني على كرسي، ومنذ ذلك الحين تغيَّرت معاملة أبي عجيب معي تغيُّراً مطلقاً، فصار يعاملني كأنني واحد من أولاده، بل إنه صار يعتمد عليَّ في كثير من الأمور في المحل، وبقيت صحبتنا إلى أن احتلَّ الصهاينة الأشرار الجولان ومنه بلدتي الحبيبة فيق.

لقد نغَّص هؤلاء الأشرار علينا حياتنا. لا هنئوا يوماً بما احتلوه من أرضنا. إنهم أينما حلُّوا وأينما وُجدوا يحل الخراب والدمار والقتل، لكننا لن نسكت على ضيم ولن ننام على ظلم وسيعود حقُّنا إلينا مهما طال الزمن.

(المُطَهِّر)

في الريف عاداتٌ وتقاليدُ وأعرافٌ متَّبعة يتقيَّد بها أهل الريف جميعاً؛ كباراً وصغاراً ورجالاً ونساءً، وكأنما فُرضت عليهم فرضاً أو أُنزلت عليهم من السماء، أو كأنما هي قوانين ملزمة لا يحيدون عنها أبداً، إذ تُعَدُّ أوقات تنفيذها ومواعيد ذلك مقدَّسة لديهم، فلا يمكن تبديلها أو التلاعب بها أو تجاوزها؛ مثل مواعيد حَلْب الأغنام ووقت جَزِّ أصوافها وأوقات الحصاد ودراسة المحاصيل، وكذلك مواعيد قِطاف الزيتون وعصره، وتجديد طين البيوت القديمة، وأظن أن التقيُّد بمثل هذه المواعيد كان عُرفاً متَّبعاً في كل الريف السوري العزيز على قلوبنا، ومن تلك المواقيت المعروفة آنذاك - إضافة لما سبق ذكره - موسم يسبق بدء العام الدراسي بأسبوع أو أسبوعين، ويتكرر مرة في كل سنة، وهو موسم (خِتان) الأولاد.

كان مُطَهِّر الأولاد (أبو عزيز) يأتي إلى بلدتنا في بداية الخريف، ويحمل في يده حقيبة بنيَّة اللون تشبه حقيبة الطبيب، وتحتوي بداخلها أدوات المطهر؛ وهي المقصّات والمشرط وبعض الملاقط، وكان أبو عزيز هذا رجلاً طويل القامة، أحمر الوجه، في وجهه تجاعيد غليظة، ويبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً. حينما كان المطهر أبو عزيز يصل إلى بلدتنا؛ كان يذهب مباشرةً إلى دار المختار فيخبره بقدومه، وبأنه سيقيم في مضافة (موسى المقبل)، كما أنه منذ صباح الغد سيكون جاهزاً للقيام بختان (تطهير) الأولاد الذين هم بحاجة إلى الخِتان والذين يريد أهلهم خِتانهم (تطهيرهم)

هذا العام، ثم يقضي وقتاً قليلاً في دار المختار يشرب القهوة الـمُرَّة وما إلى ذلك، وبعدها يخرج مودِّعاً المختار، متوجّهاً إلى مضافة (موسى المقبل)، وما إن يصل أبو عزيز إلى مضافة جدي حتى كنا نسمع صوت الوقّاف (الكحّال) الذي كان ينادي على الحصاد وأمكنة توزيعه، كما كان يُعلِم الناس من أهل الحارة وأهل البلدة بحضور المطهر (أبو عزيز) بقوله: "يا سامعين الصوت: صلّوا على النبي، المطهِّر أبو عزيز وصل، وهو في مضافة موسى المقبل، والحاضر يعلم الغايب"، ثم ينزل عن السطح الذي نادى من فوقه ليذهب وينادي في حارة أخرى، حينئذ يكون الأولاد أول مَن يسمع ويدري بالخبر، فكان مَن اختَتَن منهم فَرِحاً لا يهمه الأمر، أما مَن لم يُختتن بَعْدُ فتراه قد اضطرب وفزع من الخوف، محاولاً التأكد من الخبر مع علمه بأنه يقين، وقد يصادف بعض الأطفال المطهّر (أبو عزيز) في طريقهم إلى المختار أو في طريقهم إلى مضافة (موسى المقبل)، فكان الأطفال حينما يشاهدونه ـــ وأنا منهم ـــ يفرُّون من طريقه، وما هي إلا سويعات حتى ينتشر خبر قدوم (أبو عزيز) في البلدة كلها، وكنتَ إذا تجوَّلتَ في طرق البلدة ودروبها وأزقَّتها لا تشاهد أحداً من الأولاد، ولا سيما الذين لم تُجرَ لهم عملية (الخِتان)، فكلٌّ منهم تجده هارباً إلى جهة ما، كما أنك لو دخلت البيوت لتفتِّش عنهم فلن تجد لهم أثراً أيضاً، فمنهم مَن اختبأ في الوادي بين أشجار الزيتون، ومنهم مَن آثر الاختباء في السهول فوق أشجار الزيتون، وبعضهم فضَّل الاختباء في حظيرة (زريبة) المواشي أو في (التَّبّان)، وهناك الذين اختبؤوا فوق أسطح المنازل.

كان الأهل الذين يريدون تطهير ولد أو أكثر من أولادهم لا يكلِّفون أنفسهم بعناء البحث عنهم، لأنهم يعرفون مسبقاً بأنهم قد فرُّوا واختبؤوا،

فكانوا يتركونهم إلى أن يحلَّ المساء، لأن الأولاد لا بد أنهم سيعودون إلى البيوت في المساء ليتعشّوا ويناموا.

كان الأهل لا يُظهرون نيَّتهم في خِتان (تطهير) ابنهم، ولا يجعلونه يشعر بأي شيءٍ أبداً، لكنهم في المساء يرسلون رجلاً من أهل بيتهم إلى المطهّر (أبو عزيز) الذي كان يقيم في مضافة جدي (موسى المقبل) بضعة أيام حتى ينهي مهمته، فيأتي الرجل الـمُرسَل كي يتَّفق مع (أبو عزيز) على موعد خِتان (تطهير) ابنهم، كما أنه يتفق معه على الأجرة ونوعيتها، لأن من الناس مَن يدفع للمطهر نقداً، ومنهم مَن يدفع له بدلاً من النقود بيضاً أو زيت الزيتون أو البرغل، وكذلك منهم مَن يدفع بدلاً من أجرة المطهر ديكاً أو دجاجة أو أكثر أو غير ذلك، والمطهّر (أبو عزيز) كان يقبل أي شيء يقدَّم له كأجرة مقابل تطهير أي ولد من الأولاد في البلدة.

كان (أبو عزيز) يطهِّر كل ولد في بيته، ولكنه كان أحياناً يطهِّر الولد في مضافة جدي، ولم يكن جدي يمانع في ذلك، إذ يتم الاتفاق بين أهل الولد و(أبو عزيز) في مضافة جدي، وقد كان (أبو عزيز) رجلاً محنَّكاً طحَنَتْه الأيام طحناً وعصرته عصراً وعلَّمتْه من أين تؤكل الكتف، فقد كان يدخل كل بيوت بلدتنا وبيوت القرى الأخرى مرة واحدة في كل عام على الأقل، والمطهّر (أبو عزيز) لا يعمل شيئاً طوال العام، فمهنته الوحيدة هي خِتان الأولاد (تطهيرهم)، وكان يبيع ما يتلقّاه من الناس عن عمله لأصحاب المحلات ويُبقي ما يحتاج إليه له ولأهل بيته من سمن وزيت وبرغل وطيور، وأما الزائد عن حاجته وحاجة أهل بيته فيبيعه ويضع النقود في "عُبِّه".

لقد كان (أبو عزيز) داهية بالنسبة إلي؛ وأنا الولد الصغير، لأنه هو مَن كان يضع خطة اصطياد الأولاد ويعلِّمها لأهاليهم جميعاً، وكان الأهل ينفِّذونها، إذ كان يقول لأهل الولد الذي اتفق مع أهله على كل شيء: أنا في الصباح سأكون عندكم في الدار قبل أن يخرج ابنكم، وإذا حاول الخروج امنعوه ولو بالقوة، وفي أحايين أخرى كان يختار الوقت المناسب الذي يكون فيه الولد في الدار؛ ظهراً أو قبل الظهر أو بعده أو قبل العصر أو بعده، فيباغته بمجيئه كي يجري له عملية الخِتان.

كان أبو عزيز يعرف كل البيوت والطرق المؤدية إليها، فهو لا يحتاج إلى دليل أو مرشد، وكان يظل مبتسماً دائماً ويقوم بعمله دون خوف أو رهبة، فيحلّ على الولد وأهله كالقضاء المستعجل، فيأمر الحاضرين بالإمساك بالولد الـمُراد خِتانه، إذ كان يعرفه من دون أن يدلَّه عليه أحد، وإنْ كان بين جماعة من الأولاد؛ فقد كان يعرفه من ارتجافه واصفرار وجهه، وكان أسلوبه لتنفيذ عمله هو تقييد رجلَي الولد بيديه، بحيث تبقى رجلاه مفتوحتين ومقيَّدتَين بيديه، وهذا بدوره يثبِّت اليدين أيضاً دون بذل جهد كبير، وكان له طريقة أخرى زيادة عما سبق، وهو لجم الولد ذي الصوت العالي، كما أن كان يعصب عيني بعض الأولاد شديدي الخوف حتى لا يروا ما يفعله بهم، وأما الأولاد الطبيعيون فكان يكتفي بتقييد أرجلهم بأيديهم ويطلب منهم عدم النظر لما يفعل، كما كان يطلب من أحد الحاضرين أن يتكلَّم مع هذا الولد حتى يتشتَّت انتباهه عما سيفعله، وكان أفضل مَن يختاره كي يكلِّم الولد الذي سيخضع للخِتان (التطهير) هو ولدٌ مثله، والأفضل

لديه أن يكون الولد المتحدِّث قد خُتِن (طُهِّر) قبل قليل، إذ يقول الولد الذي انتهى من الخِتان للولد الذي سيُختَن: لا تخفْ، إنها سهلة ولا تؤلم، والله إنها عملية سهلة ولن تتوجَّع. انظر إلي وصدِّقني ستكون بخير.

كان أبو عزيز يجهِّز كلَّ شيء يحتاج إليه على قطعة شاش بجانبه، ويتجاذب أطراف الحديث مع الولد المسكين الخائف والمرتعب أحياناً، وبلمح البصر يكون قد أزال قلفته قائلاً له: ها قد انتهينا. انظر لقد انتهينا. علينا فحسب تضميد الجرح كي ينقطع نزف الدم، ومباشرة يرش بعض (البودرة) التي لـمّا أزل لا أدري ما طبيعتها وما نوعها، ويضع القطن، ثم يلفُّ الجرح بالشاش ثم يبتسم للولد قائلاً: "مبروك. مبروك. يا ولد يا الله يومين وتشفى إن شاء الله". في هذه الأثناء تبدأ المباركات لأهل الولد جميعهم من أبي عزيز، كما أن أهل الولد يبدؤون بالمباركة بعضهم لبعض، ويخرج الولد الذي أجرى الخِتان ممسكاً به شخصٌ من أهل الدار التي هم فيها، ثم يذهب به إلى حيث توجد النساء، وهنا تبدأ الفرحة الحقيقية، إذ تبدأ النساء بإرسال الزغاريد والغناء والأهازيج، ثم تُلبسه إحدى النساء من قريبات الولد الذي أُجري له الخِتان ثوباً جديداً، أبيض اللون، وتقوم أخرى بِرَشِّه بالعطر، وقد يقوم أحد الرجال من أقارب الولد بإطلاق عدّة عيارات نارية من بندقية أو مسدس، وذلك تعبيراً منه عن الفرحة والابتهاج.

كانت تُقدَّم الحلوى للحاضرين وللولد الذي أجرى عملية الخِتان، كما أن بعض العائلات الموسرة تذبح خروفاً أو جدياً أو أكثر ابتهاجاً بهذه المناسبة، ومن ثم يوزِّعون لحم الذبيحة على الأقارب والجيران، سواء كانوا محتاجين إليها أم لا.

لقد كان الوقّاف (كحّال) يأتي عصراً إلى بيت أهل الولد الذي أُجري له الخِتان، وذلك لينال نصيبه من الحلوى (الحلوان)، لأنه هو الذي أعلم الناس بقدوم المطهِّر وبيَّن لهم مكان وجوده.

كان من عادات أهل بلدتي في تلك الأيام أن يختنوا أولادهم، وهم كبار في السنّ، أي بعد أن يكون الواحد منهم قد دخل المدرسة، وليس كما هي العادات الآن، إذ يُختَن الطفل اليوم وهو رضيع أو بعد أربعين يوماً من ولادته، وكان بعض الأهالي لا يختنون أولادهم إلّا وهم في عمر الشباب، وذلك لأسباب كثيرة، منها عدم القدرة على السيطرة على الولد، أو لعدم وجود الوقت المناسب، أو لغير ذلك من الأسباب، وإنني أعرف بعض الشبّان من بلدتنا لم يُختَتنوا إلا بعد أن خطب له أهله وأرادوا تزويجه، وأعرف منهم مَن قد ذهب لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، ولـمّا يَختتن بعد.

كنتُ إذا ما جُلْتُ في شوارع بلدتي (فيق) أشاهد الأولاد الذين أجروا عملية الخِتان يلبسون الثياب البيضاء، وقد أمسك كلٌّ منهم بثوبه من وسطه حتى لا يحتكَّ مع مكان العملية، وكنتُ أشاهدهم وهم يمشون مباعدي القدمين (فرشخة) كي لا يؤذوا أنفسهم وكي لا يسبب الواحد منهم الألم لنفسه، فلذلك كنت تراه حذراً في مشيه وفي التحكُّم بسرعته في المشي لئلا يحتك ثوبه بجلده فيسبب له الألم.

وكنا نحن الأولاد الذين لم نختتن نضحك منهم ومن مشيتهم ومن حركاتهم ونقول فيهم دُعابات (نكات) كثيرة؛ من مثل "شوفوا فلان بيمشي مثل البطة" أو " فلان مشيته مثل مشية الكلب الأعرج"، وما إلى ذلك من مثل هذه الدُّعابات، ولكن حينما جاء دورنا في الخِتان أو حينما آن وقت

ختاننا وفقاً لرأي أهلنا، ولا سيما بالنسبة إلي؛ إذ إن المطهّر مقيم في دارنا في ضيافة جدي، كنتُ أتساءل أين سأذهب؟! وأين سأختبئ؟! فقد كانت كلُّ السُّبُل مسدودةً أمامي ولا حلَّ لديّ البتّة، وليس لدي مهربٌ أبداً، فلجأتُ إلى غرفة جدتي (ديبة السالم) - رحمها الله- واختبأتُ خلف ظهرها متوسِّلاً إليها ألا تعلمهم بمكاني.

قالت لي جدتي: لا تخف، لن يجدك أحد، ولكن عليك ألّا تتحرك فقطعتُ حتى النَّفَس من الخوف، لكنهم حينما حضروا ليسألوها عني كانت تقول لهم: "مش هون. أنا ما شفتو"، تقول ذلك بلسانها فحسب، في حين كانت - رحمها الله - تومي لهم بالإشارة عن مكاني، وقد علمتُ هذا منها لاحقاً بالمصادفة، وهي تحدِّث أمي عن حادثة اختبائي خلف ظهرها، وكيف أني كنتُ أغرس رأسي في ظهرها حتى لا أرهم ظنّاً مني أنني إذا لم أرهم بعيني فإني بأمان، وأنهم بذلك لا يروننني.

المهم أنهم في نهاية الأمر قبضوا عليّ وسحبوني سحباً إلى المطهّر (أبو عزيز) في مضافة جدي وجرى لي ما جرى للأولاد الآخَرين. كان المطهّر يغيِّر ضماد الجرح لي في صباح كل يوم، واستمرَّ على هذا المنوال مدة ثلاثة أيام، إلى أن بدأت أعود شيئاً فشيئاً إلى حالتي الطبيعية في المشي والحركة.

لقد كانت أيام خِتان الأولاد في بلدتي (فيق) تشبه أيام الأعراس والأعياد لولا بكاء الأولاد، وقد كانت أيام فرح حقيقي ومصدر سعادة لكل من تمَّ خِتان ولده؛ ومصدر سعادة له ولكل عائلته وأقاربه وجيرانه.

كانت تفاصيل أيام خِتان الأولاد تبقى حديث المجالس والمضافات عدَّة أسابيع، وكان بعض الأهل أو الأقارب والجيران يقدمون الهدايا للولد

الذي أُجريت له عملية الخِتان، ولا سيما الثوب الذي سوف يلبسه بعد إجرائه لها، وقد تَنْذُرُ جدَّته أو عمته أو خالته أو أخته الكبرى أو غيرهنّ نذراً أنْ يكون الثوب الذي سيرتديه الولد هديةً منها، أما بعض الأمهات أو الآباء أو الأجداد أو الجدّات فيكون أحدهم قد نَذَرَ أنْ يذبح كبشاً أو تيساً أو عجلاً أو غير ذلك.

لقد كانت تُقام في بلدتي الولائم والموالد وما إلى ذلك في أيام الخِتان، وألا ليت أيام الخِتان تعود ويعود معها جولاننا الحبيب إلى الوطن، ويا ليت تكون عودة كلٍّ منّا نحن إلى بلدته وداره وكرم زيتونه وملاعب صباه عودةً قريبة الميعاد، ويحضرني هنا قول أبي القاسم الشابي:

إذا الـشَّعْبُ يومـاً أراد الحيـاةَ فـلا بـدَّ أنْ يَـستجيبَ القَـدَرْ

(الصيّاد)

طبيعة الجولان جميلة جداً، فأرضه خصبة ومياهه كثيرة وأمطاره غزيرة، تهطل في جميع الأوقات من السنة، فيه ينابيع كثيرة دائمة الجريان، ولعلَّ ذلك عائد إلى كثرة الأمطار التي تهطل فيه، وكذلك فيه السهول المتموِّجة الواسعة التي يتخلل أطرافها أودية مختلفة الأعماق؛ فمنها وادي اليرموك الذي يكوِّن حدّاً فاصلاً بيننا وبين الأردن، وكذلك في الشمال الشرقي منه وادي **(طُعَيْم)** الذي يتّصل بوادي الرقّاد المتصل بدوره بوادي اليرموك.

قريباً من سفح جبل **(الحرمون)** جبل الشيخ يقع وادي بانياس متّجهاً من الشرق إلى الغرب ومتّصلاً مع وادي البطيحة وممتداً إلى بحيرة طبريا، ومكوِّناً بوساطة الخطوط الجغرافية لتماسِّه مع لبنان إذا ما اتجهنا نحو الغرب، حدودَ الجولان مع أرض فلسطين الحبيبة المغتصبَة من الصهاينة، وإلى الغرب من بلدة كفر **(حارب)** توجد منحدرات وسفوح متصلة أيضاً بأرض فلسطين المحتلة، وفي هذا السفح عينٌ تسمّى **(عين قروح)**، وهي عينٌ وافرة الماء.

إنَّ جمال الطبيعة وكثرة الماء وخصوبة الأرض وكثرة الأشجار في منطقة فيق وموقعها الجغرافي؛ كلُّ هذا أدّى إلى كثرة أنواع الطيور المقيمة فيها والمهاجرة منها أو عَبرها وتنوعها، وكذلك أدّى إلى كثرة الحيوانات البرية وأهمها الغزلان والأرانب، وهذا شجّع الأشخاص الذين يرغبون في

الصيد أو الذين يرغبون في القيام برحلات صيد فردية أو جماعية على ممارسة هذه الأنشطة بسهولة ومتعة.

كان من بين مُـحِبِّي الصيد شابٌّ من قرية (مَعَرْيَة) يُلقّب بـــ (ابن الصادق)؛ وقد نزل (ابن الصادق) في صبيحة أحد الأيام راغباً في الصيد فقصد (عين قروح) التي يكثر عندها وحولها من الطيور الحجَل والحمام، ومن الحيوانات البرية الأرانب والغزلان.

قنص هذا الشاب قرب العين فاصطاد من الطيور عدداً كبيراً، لكنه حينما صارت الشمس في قبّة السماء وارتفعت الحرارة - وقد كان الوقت صيفاً - أحسَّ ابن الصادق بالتعب والعطش؛ فاكتفى بما قُسِم له من الصيد وسار قاصداً نبع الماء المسمّى (عين قروح) ليرتاح ويروي عطشه، وحينما وصل إلى العين وضع صيده وبندقيته جانباً وخلع حذاءه قرب الماء تماماً، وكانت حركته والجَلَبة التي قد أحدثها قرب عين الماء قد نبَّهت أفعى رقطاء كبيرة مرعبة إلى تلك الحركة، فأخذت حذرها واستعدت لما هو آتٍ إليها عند العين، فلفَّت نفسها تحت صخرة بمحاذاة الماء.

تحبُّ الأفاعي الماء، فهي تقنص فرائسها بالقرب منه أو في داخله، كما أن الأفاعي تقصد الماء لتشرب أو لتسبح كي تبرِّد جسمها، ولا سيما حين اشتداد الحرّ.

إنَّ حركة الصياد ابن الصادق قد نبَّهت الأفعى الموجودة أصلاً قرب عين الماء لتصطاد، فكان الصيّاد سيّئ الحظ في هذه المرة فأصبح هو الفريسة، وقد سهَّل الصياد (ابن الصادق) على الأفعى مهمتها ومنحها الفرصة الحقيقية لتلدغه كيفما تشاء وفي الوقت الذي تشاء، وذلك حينما وضع بندقيته على

بعد أمتار منه وخلع حذاءه العسكري طويل الساق، كما أنه خلع سترته أيضاً وشمَّر عن ساقه وجلس على الصخرة التي تختبئ الأفعى تحتها، ثم غسل يديه وجهه بالماء قبل أن يشرب كي يبرِّد جسمه، وحين أراد أن يشرب حنى ظهره ومدَّ رجليه إلى الخلف قليلاً، فما كان من الأفعى المتربِّصة إلا أنْ شنَّت هجومها السريع الخاطف على إحدى قدميه، ولدغته في أسفل ساقه اليمنى.

كانت سرعة هجوم الأفعى الرقطاء تساوي سرعة الطلقات التي اصطاد بها (ابن الصادق) طيور الحجل والحمام، وبعد هجومها انكفأت تحت الصخرة حيث كانت مختبئة تنتظر الصيد، وكان صيدها في هذه المرة شابّاً في مقتبل العمر.

أحسَّ (ابن الصادق) بلدغة الأفعى، وقد سنحت له الفرصة لرؤية بعضٍ من جسم الأفعى قبل أن تختبئ، حينئذ سحب رجله من الماء مرعوباً ونظر ودقَّق في الرِّجْل التي أحسَّ بوخزٍ فيها، فوجد مكان لدغة الأفعى والمكان الذي غرست فيه أنيابها، إذ رأى بعض الدم يخرج من مكانَين على هيئة وخزَتَين بعضهما فوق بعض، وكانت تلك علامة لغة الأفعى، حينها أدرك الشاب الصياد المسكين أن الأفعى التي تحت الصخرة التي جلس عليها ليشرب قد لدغته وأدرك أنَّ سُـمَّها سوف يقتله بعد قليل، وكان عليه أن يتصرف بسرعة دون أن يُكثر من الحركة.

لقد كان عند العين وحيداً ولم يكن يرى أحداً من الناس في محيطه منذ أن قَدِم إلى الصيد صباحاً، وقد عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن صوته إذا نادى وصاح طالباً النجدة لن يسمعه أحد مطلقاً، كما أنه يعلم مسبقاً أن الحركة أو المشي سوف يسرّع حركة الدم في جسمه، وهذا بدوره سوف يسرِّع انتقال

سُمِّ الأفعى إلى أعضاء جسمه الحيوية، ولا سيما القلب والدماغ، وذلك سيُعجِّل في موته.

لقد مزَّق الصيّاد من فوره قميصه الداخليّ وربط به ساقه فوق لدغة الأفعى بعشرة سنتيمترات وأحكم الربط حول ساقه، ثم أخرج من جيبه سكّيناً وشقَّ جرحاً خفيفاً في ساقه واصلاً بين مكانَي وخز نابَي الأفعى، ولم تكن المسافة بينهما كبيرة، فقد كانت لا تتجاوز سنتيمترين، وبدأ يمصُّ الدم بفمه ويبصقه على الأرض، وهذا الدم طبعاً ملوَّثٌ بسمِّ الأفعى. امتصَّ الدم الملوَّث بالسمّ عدّة مرّات، ولكنه كان يدرك أنه لا مناصَ من أن يسعفه أحد أو يأخذه إلى الطبيب، وإلا فإنَّ مصَّ الدم وبصقه لا يكفيان لنجاته، فليس ذلك سوى عمل احترازي إسعافي، والحلُّ الأمثل لإنقاذ حياته هو في أن يجد وسيلةً ما كي يصل إلى طبيب أو كي يصل طبيب إليه، فما كان من الصياد المسكين إلّا أنْ زحف على ركبتَيه وبطنه عدَّة أمتار إلى أن وصل إلى البندقية وإلى الذخيرة التي كان يحملها معه، وبدأ الصياد (ابن الصادق) بإطلاق النار في الهواء إطلاقاً متتابعاً إلى أن نفدت كل الذخيرة التي كانت بحوزته.

لقد كان الصياد (ابن الصادق) شجاعاً ففكَّر ونفَّذ ذلك بسرعة كبيرة، فمنذ ربْطِ الساق إلى شَقِّ جرح فيها إلى امتصاص الدم إلى إطلاق النار حتى نفاد الذخيرة لم يستغرق من الوقت إلا بضع قائق، وبعد أن نفدت ذخيرته بدأ ينتظر قدوم النجدة إليه، وجعل يفكِّر بينه وبين نفسه أنَّ ما حدث له إنما هو بسبب اصطياده لطيور الحجل أو لتلك الحمامات، فربما يكون لها فراخ صغيرة تطعمها، وأما الآن فلا يوجد مَن يُطعمها وسوف تموت من الجوع والعطش، ودار في خَلَده أن الحمامات أو طيور الحجل أو أفراخها أو جميعهم في آنٍ معاً قد دعوا عليه، وكان باب السماء مفتوحاً فأصابته دعواتهم عليه في مقتل،

وفي حين كان يفكّر في مثل هذه الأفكار وغيرها مستسلماً لقضاء الله وقدره، وإذا بأصوات تقترب منه وتنادي بصوت عالٍ قائلةً: مَن هناك؟ مَن يطلق النار؟ انتبَه الصيّاد لذلك وكان ما يزال واعياً ومدركاً يسمع بصورة جيدة، ولكنه غدا لا يقوى على الحركة، فقد بدأ التعب ينال منه، فما كان منه إلا أن نادى نداءات خافتة ولكنها مسموعة وجعل يقول: "أنا عند العين يا سامعين الصوت. أنا عند العين يا نشامى. يا هابّين مع الريح أنا عند العين".

سمع الأشخاص القادمون النداء فواصلوا طريقهم إلى عين الماء (عين قروح)، وقد كانوا متجهين إليه أصلاً، فهم من جنود (حرس الحدود الوطني)، وكانوا قد تلقُّوا الأوامر بالذهاب إلى عين الماء المذكورة لاستطلاع سبب إطلاق النار ومصدره.

كان هؤلاء الجنود يلبسون ثياباً مدنيّة للتمويه عل مراصد الصهاينة بأنهم مدنيّون كي لا يُقنصوا أو يُستهدفوا، ففي تلك المنطقة لم يكن يفصل بين الأراضي السورية والأراضي الفلسطينية سوى شريط معدني شائك، ومن حسن حظ الصياد أنهم سمعوا نداءه ووصلوا إليه، فأخبرهم بما حدث له ودلَّهم على مكان الأفعى أيضاً، فقام أحدهم بقتل الأفعى اللعينة وحملها على كتفه، وقام آخر بحمل أغراضه، وآخرون كسروا جذعاً من الأشجار له تفرعات كثيرة وأجلسوه عليه، ومن ثم سحبوه إلى أعلى وأوصلوه بسرعة إلى موقعهم، إذ تمَّ إيصاله محمولاً على دراجة عسكرية نارية إلى بلدتي (فيق)، حيث كان يوجد طبيب عسكري بإمكانه معالجته.

كانت الدراجة العسكرية غير جاهزة تماماً، إذ إنها سوف تحمل ثلاثة رجال هم: سائق الدراجة والصياد الملدوغ (ابن الصادق) ورجل آخر يجلس في الخلف ليمسك الصيّاد ويثبِّتَه كي لا يسقط عن الدراجة، فهو غير

متوازن توازناً تامّاً، وكان لهذا الرجل الذي يثبت الصياد مهمّة أخرى ألا وهي تثبيت الأفعى المقتولة التي كان يلفُّها حول عنقه.

حَمَلَ هذا الرجل الأفعى لأن قائده أمره بذلك كي يراها الطبيب فيتعرَّف إلى نوعها وإلى نوع سمّها، فيعرف هل هو من النوع الضارّ بالأعصاب أو بالعضلات أو بكليهما معاً، فيعطي الصيّاد الملدوغ المصل المناسب الذي يُبطِل مفعول هذا السمّ.

كذلك إن حَمْلَ الأفعى المقتولة إلى الطبيب يجعله في غير حاجة إلى عرض صور بعض الأفاعي للصياد الملدوغ، لأن هذا الملدوغ ربما يكون في حالة إغماء ولا يمكن التحدث معه حينئذ.

في الطريق كان الرجال الثلاثة الذين يركبون الدراجة القديمة شبه المستهلكة يعانون الأمرَّين، فمرّةً تسقط الأفعى المقتولة ومرّةً تتعطل الدراجة ومرّةً يتقيّأ الصياد الملدوغ بسبب سمّ الأفعى، وأخيراً وبعد عناء شديد وبشقّ الأنفس وصلت الدراجة بعد وقت العصر بقليل إلى حيث يوجد الطبيب العسكري.

كان الطبيب يستأجر غرفة يستعملها في آنٍ معاً للسكن وعيادةً يستقبل فيها المرضى في دار (سليمان العويصي) أبي سعيد، وحينما وصل الرجال الثلاثة إلى باب العيادة وسمع الطبيب صوت الدراجة التي تُقِلُّهم الذي يشبه صوت الرعد كثيراً لشدته، نظر من النافذة فعرف الموضوع مباشرةً وعرف الملدوغ وتعرّف إلى نوع الأفعى ونوعية سمّها، فهبَّ وفتح الباب على مصراعيه وقال للشباب الذين كانوا برفقته: ضعوه على هذا السرير بهدوء لو سمحتم، وبحركة سريعة كتب ورقةً عليها اسم الدواء

المطلوب وطلب منهم إحضاره بسرعة كما أن الطبيب أعطاهم المال اللازم ثمناً للدواء، وكان في بلدتي فيق صيدلية كبيرة فيها كثير من الأدوية، وكانت لا تبعد عن مكان عيادة الطبيب العسكري كثيراً، فهي على بعد مئة متر تقريباً من العيادة.

ذهب سائق الدراجة ركضاً إلى العيادة وكانت لحسن الحظ مفتوحة والصيدلي موجوداً فيها، فأعطاه الورقة وثمن الدواء، وحمل سائق الدراجة الدواء وعاد بسرعة البرق إلى عيادة الطبيب وأعطاه علبة الدواء، وكان الطبيب قد جهَّز الحقنة مسبقاً في أثناء ذهاب السائق إلى الصيدلية لإحضار الدواء.

جهَّز الطبيب الحقنة وأعطاها للصياد الملدوغ (ابن الصادق) الذي كان في شبه غيبوبة. كان المسكين يئنُّ فحسب دون حراك، وبعد ما يقرب من نصف ساعة صار الملدوغ يتصبَّبُ عرقاً، وصار جسمه يرتجف، وكأنه قد صُعِق بالكهرباء، وسرعان ما انتشر الخبر في بلدتي، وكنا نحن الصغار نتجمَّع في الشارع وأحياناً ننظر من النافذة لمشاهدة الصياد الملدوغ، وقد وصل خبر الصياد إلى أهله في قرية معرية، فحضر أبوه على ظهر حصان ووصل إلى عيادة الطبيب في (فيق) بعد المغرب بقليل، ومن ثم نزل عن حصانه ودخل إلى الطبيب وسأله عن حال ابنه ليطمئنَّ عليه، فقال له الطبيب: إنه نائمٌ الآن، وإنَّ وضعه مستقرّ، وإنه يحتاج إلى مراقبة مدة أربع وعشرين ساعة وسيبقى في العيادة هنا إلى مساء الغد، وإن شاء الله سوف يكون بخير إذا لم تحدث له مضاعفات أخرى.

بكى الأب كثيراً داخل العيادة وخارجها، حيث جلس على الرصيف أكثر من ساعتين، ثم خرج إليه الطبيب قائلاً له: يا عم، ولدك بخير وأنا

سوف أنام هنا إلى جواره في العيادة، وقد جاء إلى العيادة من الثكنة العسكرية ممرض عسكري، لمساعدتنا، فلا تخفْ. اذهب وابحث عن مكان تنام فيه حتى الصباح.

حينذاك شكر الأب الطبيبَ وغادر رصيف باب العيادة ومشى متثاقلاً، ورأيته يسلك طريقاً إلى دارنا، إلى مضافة جدي، وإذ به يعرف كلًّا من جدي وأبي رحمهما الله.

دخل (الصادق) إلى مضافة جدي في دارنا، فسلَّم وجلس وروى لجدي ما حدث مع ابنه وبيَّن له وضعه الصحي، وكانت تبدو على قسمات وجهه علائم الحزن، فقد كان في أثناء كلامه مع جدي يبكي بصمت، وهو مهموم ومكسور الخاطر، لكن جدي أمر له بالعشاء وبدأ يواسيه ويطمئنه على ابنه ويدعو له بالشفاء العاجل.

في الصباح استيقظ الضيف وأيقظ جدي طالباً الإذن بالمغادرة، كي يطمئن على ابنه، إلا أنَّ جدي أخذ عليه عهداً بأن يعود بعد أن يطمئن على ولده، كي يتناولا طعام الفطور معاً، فوافق (الصادق)، وذهب مسرعاً للاطمئنان على ابنه، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة في أثناء سيره نحو عيادة الطبيب العسكري، فعلى ما يبدو كان يدعو الله أن يشفي ولده الصياد من لدغة الأفعى اللعينة، ووصل الأب إلى عيادة الطبيب وتفاجأ حينما رأى ابنه مستيقظاً من غيبوبته، وهو يتحدث مع الطبيب، وكان الطبيب يسأله عمّا يُحسُّ به، وما إن رأى الطبيبُ الأبَ حتى بشَّره وطمأنه على سلامة ابنه وقال للأب: إنَّ ابنك تجاوز مرحلة الخطر، وهو بصحة جيدة ومستقرة، ويمكنك أن تأخذ معك غداً بشرط المواظبة على تناول الدواء الذي وصفته له مدَّةَ

شهر كامل، وأن يبقى مرتاحاً دون بذل أي جهد، وعليه مراجعة العيادة هنا بعد انقضاء الشهر، وذلك للتأكد من وضعه الصحي ودرجة شفائه.

شَكَر الأب الطبيب وحاول إعطاءه أجرة المعالجة وثمن الدواء الذي اشتراه لابنه، لكن الطبيب رفض أن يأخذ أي نقود. عاد الأب إلى مضافة جدي، متهلِّلَ الوجه، مستبشراً خيراً، راجياً شفاء ابنه، إذ أكّد له الطبيب أن ابنه قد تجاوز مرحلة الخطر وأنه بخير، فلمّا رآه جدي على هذه الحال الطيبة استبشر خيراً وقال للأب: "بشِّر يا رجل، عسى خيراً، إنني أرى بشارة خير على أسارير وجهك ومحيّاك"، فذكر الأب ما رآه بأم عينه من حال ولده، وحدَّث جدي بما قاله له الطبيب، قال جدي: حسناً، وكان طعام الفطور جاهزاً فتناولا طعام الفطور معاً، ثم قال جدي للأب: اسمع يا رجل، إنَّ بيتنا قريب من عيادة الطبيب ومن الصيدلية التي تجاورها، وسيبقى ولدك عندي هنا في مضافتي وفي ضيافتي مدَّةَ الشهر الذي حدّده له الطبيب، وإنْ أردت البقاء معه فحيّاكَ الله، وإنْ أردتَ أن تذهب لقضاء أعمالك وأشغالك فلك ذلك. إن ابنك في أمان عندنا بإذن الله، وإذا حدث معه أي طارئ - لا سمح الله - فالطبيب والصيدلية قريبان جداً من دارنا، وأنا أعرف كلًّا من الطبيب والصيدلاني معرفة جيدة، وعلاقتي بهما وطيدة. قال جدي: "أما أنت أيها (الصادق) فافعل ما يحلو لك وكن مطمئناً، فابنك سيظل عندنا ولن تذهب به إلى قريتك (معرية)، لأنه لو حدث له أي شيء هناك فإنك سوف تقع في حيص بيص. فكِّر أيها (الصادق) بعقلك لا بقلبك، فهل من المعقول أن تذهب بالولد الملدوغ مسافةً تبعد عن الطبيب والصيدلي عشرة كيلو مترات وتزيد، وليس من طرق معبَّدة توصل إلى قريتكم، وليس من

سيّارات، بل أودية وسهول وهضاب؟! ومن ثم فإنك في النهار لا تجد أي سيارة، فإذا ما احتاج ابنك إلى شيء فلن تحصل عليه إلا بشقّ الأنفس بعد ساعات وساعات، فكيف إذا احتاج إليه في الليل؟! فكِّرْ يا رجل بصحة ابنك وبراحة بالك أنت أيضاً. إنَّ ابنك هو ابننا، وسأذهب أنا بنفسي إلى الطبيب غداً وآتي به إلى مضافتي هنا، وأهلاً بك وبابنك عندنا، فالدار داركم والحمد لله على سلامة ابنك. اطمئن يا رجل. اطمئن، فنحن لبعضنا. نحن أهل أليس كذلك؟ قال **(الصادق)**: نعم. بارك الله بك يا شيخ على تعاونك وتعاطفك معي ومع ابني، ولن ننسى معروفك هذا معنا ما حيينا، ولكن لي طلبٌ عندك، بل رجاء يا شيخ. قال جدي: ماذا تريد؟ اؤمر يا بن الحلال، قال **(الصادق)**: لا أحبّذ أن تذهب لإحضار ابني إلى هنا، بل سأذهب أنا وآتي به إلى عندك، فأنا أريد منك أن تبقى مرتاحاً ولا أريد إتعابك.

وبعد أخذٍ وردّ وافق جدي على طلب والد الصيّاد الملدوغ، وكان الأب يذهب لزيارة ابنه بين الفينة والأخرى، وكان يكلِّمه من النافذة فحسب، ثم يعود إلى مضافة جدي، وفي اليوم التالي ذهب **(الصادق)** إلى عيادة الطبيب حيث ولده الملدوغ موجود هناك، فوجد الطبيب وسلَّم عليه، وسأله عن حالة ابنه، فطمأنه كثيراً وكتب له بعض الأدوية كي يستعملها ابنه مدَّةَ شهر، وقال له: خذ هذا الدواء واحرص على إعطائه لابنك في مواعيده، وبعد انقضاء الشهر راجعْني أنت وابنك. همَّ الأب بالمغادرة مودِّعاً الطبيب وشاكراً له اهتمامه بابنه، وأمسك بيد ابنه وخرجا من باب العيادة، فقال الطبيب: يا رجل، ابنك يجب ألا يمشي على رجليه قبل مرور أسبوع على مغادرته العيادة، فأحضرْ له شيئاً يركبه أو احملْه حَمْلاً،

فقال الأب: حسناً، سأحضر له حماراً أو حصاناً، وأعاد ابنه إلى السرير في عيادة الطبيب وخرج متوجّهاً إلى مضافة جدي وأخبره بما قاله الطبيب، فأمر له جدي بحصان وأخذه إلى عيادة الطبيب، ثم أخرج ابنه وحمله على الحصان، ومضى في طريقه مودِّعاً الطبيب وشاكراً له وداعياً له بالعزة والصحة وطول العمر، ولـمّا وصل (الصادق) إلى دارنا أنزل ولده الملدوغ عن ظهر الحصان، وكان جدي قد أمر له بسرير عسكري ووضع عليه الفِراش وجهَّزه للشاب الملدوغ ثم أجلس الأبُ ابنَه على السرير، وهو مرتاح البال والنفس لحسن الضيافة وحسن الاستقبال ولما يعرفه عن كرم (موسى المقبل) وشهامته في منطقة (الزَّوِيَّة).

كان جدي يتحدث مع الأب وكان الابن يستمع لحديثهما، ثم نام نوماً عميقاً ولم يستيقظ إلى قبل الغروب بقليل حينما حضر الطبيب إلى مضافة جدي ليعطي الصياد الملدوغ حقنة ويطمئن على صحته، وبعدئذ أجرى كشفاً على المريض ثم قال: ممتاز، حالته جيدة جداً، ولا خوف عليه بإذن الله، ثم أعطاه حقنة وسأله عمّا يحسّ به الآن، فقال الصياد الملدوغ: أحسُّ بألم وحكَّة في أسفل ساقي عند ظاهر القدم الملدوغة، فقال له الطبيب: لا تحكَّها أبداً مهما كان، وعليك تحمُّل الألم والحكَّة، فما تحسُّ به هو من آثار سمّ الأفعى الذي يتلف العضلات، ولو ظهرت لديك فقاعات في ذلك الموضع من الساق، فلا تلمسه حتى أزورك غداً مساءً في مثل هذا الوقت، ثم جلس الطبيب عند جدي مدةً قصيرة وشرب القهوة الـمُرَّة، وبعدئذ خرج مستأذناً للذهاب إلى العيادة للكشف على بعض المرضى.

كان الصياد (ابن الصادق) يأكل وينام، لكنه استيقظ عند الفجر من تلك الليلة بسبب ألم وحكَّة في ظاهِر قدمه، إذ وجد اثنتين من الفقاعات؛

إحداهما كبيرة بحجم البيضة والأخرى أصغر قليلاً، وبدأ الصياد الملدوغ يعاني الألم والحكَّ في ظاهر قدمه، ولم يصبر على ذلك كما أمره الطبيب؛ إذ عَثر على عود ثقاب مستعمل، قريباً من دِلال القهوة أمام جدي، فأخذه وفقأ به إحدى الفقاعتَين، فارتاح كثيراً، فآثر أن يفقأ الفقاعة الثانية، من دون أن يراه أو يلاحظه أحد.

حضر الطبيب في موعده وكشف على المريض وتفقَّد ساقه الملدوغة، فوجد أن الصياد قد فقأ الفقاعات، فقال له: لماذا لم تصبر عليها، لقد كانت هذه الفقاعات مكاناً تجمَّع فيه بقايا سمّ الأفعى، وبعض الخلايا الميتة والدم الملوث وكل العصارات السائلة التي في جسمك والتي تضرَّرت بسمّ الأفعى، ولو أنك صبرت عليها اليوم فحسب لأسهم ذلك في شفائك في وقت قصير.

كان الصادق يذهب إلى قريته (معريّة) فيغيب يوماً أو أكثر وأحياناً أسبوعاً، ثم يأتي لزيارة ابنه والاطمئنان على حاله، ويبيت ليلة عند جدي في المضافة ثم يغادر إلى قريته، ودامت الحال على هذه الشاكلة إلى أن شُفي الصياد وأجرى له الطبيب الكشف الأخير.

كنت ألاحظ أنَّ ساق الصياد التي لُدغت أنحف من الأخرى بصورة ظاهرة، قال الطبيب للصياد (ابن الصادق): سوف تنمو عضلات ساق ابنك مع مرور الأيام، ولكنها تحتاج إلى وقت طويل قد يصل إلى سنوات.

في الكشف الأخير كان (الصادق) والد الصياد حاضراً، وودَّع الجميع حينها الطبيب وشكروه على جهده وشهامته، وقال له جدي: بعد أن تنتهي من عملك اليوم في العيادة، أنت مدعوّ عندي على العشاء يا (حكيم)،

وقال للصياد وابنه: اليوم عشاؤكم ونومكم عندي وفي الصباح تذهبون مصحوبين بالسلامة، وقد دعا جدي بعض الأقارب ووجهاء البلدة على العشاء مع الطبيب و(الصادق) وابنه، وحضر جميع المدعوّين طعام العشاء وشكروا الله وحمدوه على نِعَمه وعلى سلامة الصياد ونجاته من لدغة الأفعى الرقطاء، وقال (ابن الصادق): إنه لن يصيد طائراً أو حيواناً بعد الآن وعاهد الله على ذلك، وبعد انتهاء العشاء والسهر مع الضيوف غادر كلٌّ إلى بيته مصحوبين بالسلامة، ونام الصادق وابنه في مضافة جدي، وفي الصباح التالي تناولوا طعام الفطور واستأذنوا للمغادرة، شاكرين جدي على عنايته ورعايته والمعروف الذي قدَّمه للصياد وأبيه.

لقد شُفي الصياد بعون الله ورعايته وجهود كلٍّ من الطبيب والصيدلي والجنود الذين أحضروه إلى عيادة الطبيب على دراجة نارية عسكرية، إضافة إلى عناية جدي بالشاب الملدوغ وأبيه، فتلك كانت صورة من صور التعاون في الريف في بلدة (فيق)، ولا سيّما في الملمّات، فقد كنتَ ترى الجميع معكَ وفي صفِّك، يساندونك ويساعدونك إذا أصابك مكروه، ويتعاونون معك إلى أقصى حدّ وأعلى درجة.

(شمال غرب)

احتلَّ الفرنسيون بلادنا بالقوة العسكرية إثر ضعف الإمبراطورية العثمانية ومن ثمَّ انهيارها، إذ عَدَّ الأوروبيون بلادنا والبلاد العربية الأخرى تِركةً لرجل ضعيف، وبدؤوا بتقسيم تلك التَّرِكة فيما بينهم برعاية الأمم المتحدة ومساعدتها، وسمّوا ذلك انتداباً، وجعلوا سورية من حصة فرنسا باتفاقية (سايكس بيكو) المشؤومة، وتفاصيل هذا الأمر قد حفلت به كتب التاريخ وأصبح معروفاً للقاصي والداني، لذلك ليس من داعٍ للدخول في مجريات أحداثه.

كان الفرنسيون وغيرهم من المستعمرين يدَّعون أنهم سوف يأخذون بأيدي هذه الدول التي احتلوها بالقوة إلى طريق التقدم والإعمار والحضارة، في حين أنهم عملوا في الواقع على نهب خيراتها وزيادة الجهل والتخلف فيها، وإذلال شعوبها، كما عملوا على تعميم مبدأ (فرِّقْ تَسُدْ)، وكان هدف الاستعمار الأوروبي الأساسي والرئيس هو: إقامة كيان مصطنع للعصابات الصهيونية على أرض فلسطين الحبيبة، وقد رأوا أن الفرصة سانحة ومناسبة لإقامة هذا الكيان، فقد كان العرب تحت سيطرة الاحتلال العثماني الذي استمرَّ مدة طويلة جداً بلغت أربعة قرون ونيِّف، وقد ظلوا في هذه المدة في تخلّف وجهل وفقر مدقع، وفي فُرْقَة وخراب ديار، فأراد الأوربيون الإجهاز عليهم وتمزيقهم وطمس حضارتهم التليدة، وإغراق تاريخهم العريق بالترّهات والخرافات والأكاذيب غير المعقولة، ولكنهم نسوا أن

إرادة الشعوب لا تُقهر أبداً، فقد قاوم الشعب العربي السوري الأبيّ محتلّيه بشراسة وبإرادة قوية، على الرغم من الفقر والجهل اللذين كانا يسيطران على عامة الناس آنذاك، وبقوة الرجال والتضحيات ودماء الشهداء طُرِد المستعمر الفرنسي من أرض سورية الحبيبة وتمَّ الحصول على الاستقلال، وبعد الاستقلال مباشرة بدأت عجلة التطور والتقدم بالدوران، ففُتحت المدارس بجميع مراحلها وشُيِّدت الجامعات وأُقيمت المعامل والمصانع وبدأت بذور الحضارة تؤتي أُكُلَها في كل الأرض السورية.

انتشر التعليم انتشاراً كبيراً في سورية في المدن الكبرى والريف، حتى وصل إلى البدو الرُّحل في البوادي والقِفار، وكانت ثمار العلوم والتطور قد وصلت إلى بلدتي (فيق)، فكان فيها ثانوية وإعدادية ومعهد خاص ومدرستان ابتدائيتان؛ واحدة للبنات وأخرى للبنين، وكان من بين الذين حصلوا على الشهادة الإعدادية بتفوق ابن عم لي، وقد تقدَّم بعدئذ إلى دار المعلمين في دمشق، حيث قُبل فيها نتيجة حصوله على درجات عالية في الشهادة الإعدادية، ودار المعلمين هذه كانت في دمشق/العاصمة، وكان الدوام فيها دواماً داخليّاً؛ أي إن الدارسين فيها لا يغادرونها إلا في الإجازات الطويلة أو في الصيف، إذ يذهب كل طالب من الطلّاب إلى مدينته أو قريته لقضاء العطلة بين أهله، ثمّ يعود إلى دمشق إلى دار المعلمين في بداية العام الدراسي الجديد، وهكذا إلى أن يُنهي دراسته.

كان ابن عمي من الطلاب الأذكياء المتفوقين في دار المعلمين التي كانت الدراسة فيها تدوم مدّة أربع سنوات كاملة، ومن الجدير ذكرُه أن ابن عمي لشدَّة طموحه انتسب لاحقاً إلى جامعة دمشق، وحصل على الإجازة

في اللغة العربية ثم أوفد إلى روسيا وحصل هناك على دكتوراه في تخصص الإعلام والدعاية.

كان ابن عمي كلّما أنهى سنة دراسية في دار المعلمين يعود صيفاً إلى بلدته (فيق)، وكان بعض الأولاد من طلّاب المدارس، وهم مثله في عطلة صيفية يلعبون ألعاباً مختلفة، فبعضهم يركض خلف بعض، وبعضهم يلعب لعبة (الغميضة)، وبعضهم يركِّب قصبة عادّاً إياها حصاناً أصيلاً، فيجري بها مسرعاً مسافاتٍ طويلة، وبعضٌ منهم كان يلعب لعبة سباق الجري، ومنهم مَن كان يقود دولاب دراجة هوائية، فيظل يركض خلفه إلى أن ينقطع نَفَسه، وكنا نحن الأولاد نسمّيها (الكُرَّيجة).

كان الأولاد يلعبون فرحين، فهذا هو ما لديهم من ألعاب، وهذا هو ما يتوافر في قُراهم منها، وقد تحدث بعض المشاجرات بين الأولاد، ولاسيما الذين يلعبون لعبة (الغميضة) أو الذين يركبون القَصَبة، إذ يتسابقون فهذا يقول: حصاني هو الذي سبق، وذاك يصيح قائلاً: بل حصاني هو الذي سبق، ويُصدر صوتاً من فمه يشبه صهيل الحصان، لأنه يَعُدُّ ذلك دلالةً على صدقه وقوة حُجَّته.

كان ابن عمي يراقب كل ما يحدث في أثناء لعب الأولاد بعين المحلِّل الذكي والمفسِّر لما يحدث بين الأطفال في بلدته أو حارته، وكان يعرف أنَّ ما يحدث هنا يحدث في كل الحارات في بلدته، لأن الحال يشبه بعضها بعضاً، وحينما انتهت إجازته الأولى وعاد إلى دار المعلمين قرَّر أن يشتري عدَّة دراجات هوائية من دمشق ويحملها معه على ظهر السيارة التي سوف تُقِلُّه إلى بلدته (فيق)، ثم عزم على أن يستأجر غرفة على الشارع العام ويجعلها محلًّا له يضع فيها دراجاته الهوائية مع ما يلزمها من عدّة.

كان ابن عمي يذهب أحياناً إلى دمشق في إجازة قصيرة لشراء بعض حاجاته فيعرِّج على محلّات الدراجات في أحياء دمشق، وكانت هذه المحلّات كثيرة ومنتشرة في تلك الأيام، فيسأل عن كل ما يخصُّ الدراجات ويشاهد كيفية إصلاح الأعطال فيها، فكان - وهو الشاب الذكي - يتعلَّم عن هذا الأمر كلَّ شيء، وحين انتهى عامه الدراسي الأول في دار المعلمين وجاءت العطلة الصيفية وصل ابن عمي إلى البلدة وبرفقته عدّة دراجات هوائية وبعض الأكياس والعُلَب المصنوعة من الورق المقوّى (الكرتون) محمولةً على ظهر السيارة التي عاد بها إلى البلدة، فوضعها في أول الأمر في داره، ثمّ في اليوم التالي استأجر محلًّا مناسباً في وسط البلدة مطلًّا على الشارع الرئيس، يقع قُبالة مفرق طريق (سكوفيا)، وكان هذا الطريق معبَّداً بصورة جيدة، إضافة إلى أنه طريق مستقيم لا يحجب الرؤية، فكان ابن عمي يستطيع أن يرى كل شخص يؤجِّره الدراجة من داخل محلّه، كما كان بإمكانه مناداته، إذ إن صفات الطريق تلك ستجعله يسمعه بسهولة.

كان امتداد الطريق الرئيس في بلدة (فيق) مستقيماً من شرق فيق عند مركز البريد إلى مفرق طريق (سكوفيا) ممتدّاً إلى نادي الضباط غربي (فيق)، فتحقَّق لابن عمي ما كان يريده، فمَن كان يستأجر درّاجة فلا خيار له سوى أن يذهب من باب محلّه شمالاً أو أن يذهب من باب محلّه غرباً، وهذا ما كان يريده ابن عمي بالضبط.

شاع خبر وجود محلّ دراجات هوائية في بلدتنا وانتشر انتشار النار في الهشيم، ولا سيما أن الطريق الرئيس فيها من قبالة المحل باتجاه الغرب يصل إلى منطقة السّرايا الحكومية التي كانت تضمّ إدارة المنطقة والشرطة والسجن

والمحكمة ومقرّ المفتي وإدارة الأحوال المدنية (النُّفوس) وإدارة العقارات ومنطقة المدارس، إضافة إلى المنازل والبيوت التي يسكنها أهالي البلدة في تلك الجهة، وما هي إلا أيام حتى صار الأولاد يتجمَّعون ويقفون رتلاً بانتظار دورهم لاستئجار دراجة كي يتعلموا ركوبها وقيادتها.

كان كل ولد يجيء ومعه أخوه أو ابن عمه أو صديقه، ليمسك الدراجة ويثبِّتها له وليساعده على ركوبها، وكانت أجرة ركوب كلِّ دراجة خمسة قروش أي ما يعادل (فرنكاً)، والمسافة المحدَّدة للركوب وفقاً لذلك هي من باب محلّ ابن عمي باتجاه الشمال إلى جانب دار (أبي نمر)، ثم العودة إلى أمام المحل، أو من باب المحلّ إلى جانب دار الأستاذ (شريف) ثم العودة إلى باب المحل أيضاً، فيما لو أراد الولد المستأجر الذهاب غرباً، وكنت أشاهد الأولاد يترنّحون وهم يركبون الدراجات، فإذا لم يكن الولد الذي يساعد راكب الدراجة قوياً فقد يسقط راكب الدراجة، ومن ثم تسقط الدراجة فوقه. كنتُ أشاهد هذا وغيره من مشاهد كثيرة لحالات تعثُّر الأولاد وسقوطهم عن الدراجة، أو لسقوطهم هم والدراجة معاً، وقد كانت مشاهد مضحكة ومحزنة في الوقت نفسه، لأن من الأولاد مَن كان يتأذّى بسبب سقوطه، وكان الشيء الذي يطمئن هو قلَّة السيارات التي تسلك الطريقين أو الاتجاهين وندرتها في تلك الأيام.

كنتُ - أنا الولد الصغير - أساعد أهلي، ولا سيما أمي في أعمال البيت كلِّها، وهي كثيرة منها: وضع الماء والعلف للدجاجات وكنس الغرف ومضافة جدي ومراقبة الحليب على النار كي لا يفور، كما كنتُ أُخرج جذوع الحطب من تحت القِدْر حينما يبدأ الحليب الذي في القِدْر بالغليان والفوران، حتى إني كنتُ أحمل رماد الفرن (التَّنور) وألقي به من على شفا

الوادي، وكنتُ مساءً أعجن (العَجْنة) في الـمَعْجَن نيابةً عن أمي إلى أن تقول لي: "يكفي يا بني، (الله يعطيك العافية)، (تسلم إيديك)"، في حين كانت هي تغزل الصوف أو تنسج لنا شيئاً أو تسهر مع جارتنا (عدرا العوض الأحمد) في بيتنا، وقد كنت أقوم بكل هذا مسبقاً كي أحصل على بيضة في اليوم التالي، فكنت أبيعها بسبعة قروش ونصف أي بـ (فرنك ونصف)، فأذهب إلى محل الدراجات وأستأجر دراجة بخمسة قروش، وأخبِّئ القرشين والنصف الباقيين لقابل الأيام، وكنتُ أفضّل الذهاب شمالاً، لأن الطريق أسهل وعلى جانبيه مساحة (وجيبة) ترابية من تراب الجولان الأحمر الطريّ، فإذا وقعتُ على أي جانب من جانبَي الطريق لا أتأذّى، أو إذا تأذيت فسيكون الضرر بسيطاً، أما الطريق في اتجاه الغرب فهو ذو حوافّ حادّة ومنخفضة على الجانبين، ولا سيما بعد شعبة تجنيد فيق، من جهة الجنوب، أي بعد دار (أبي نورة) بقليل، لذلك كنت لا أحبّذ الذهاب في هذا الاتجاه، وقد كنت وأغلب الأولاد مثلي يجاهدون للحصول على القروش الخمسة، وذلك لقلة النقود في أيدي الناس.

لقد تعلَّمتُ قيادة الدراجة بسرعة، وكثير من أولاد البلدة قد تعلموا قيادة الدراجة أيضاً، وصرنا نقود الدراجة دون مرافقة أو مساعدة من أي أحد، كما أنني صرتُ أطلب الدراجة التي فيها جرس، وصارت الأجرة التي ندفعها كلَّ دقيقة بقرش ووفق اتجاه محدَّد مسبقاً، وأما المسافة فظلَّت على حالها؛ أي من باب المحل شمالاً إلى دار (أبي نمر) ثم العودة، أو من باب المحلّ غرباً إلى دار الأستاذ (شريف) والعودة، ولكنها أصبحت تقدَّر بحسب الزمن، فكل عشر دقائق بخمسة قروش، إذ إنني صرتُ قادراً على الذهاب والعودة خمس مرات إلى باب دار (أبي نمر)، وصرت أتوجَّه شمالاً

أو غرباً كيفما أريد ومتى أريد، فلم أعد ملزماً أن أذهب في اتجاه واحد حتى نهايته، بل صرت لا أصل إلى دار الأستاذ **(شريف)** أو إلى دار **(أبي نمر)** إذا ما رغبت في ذلك، فأعود من منتصف هذا الطريق أو ذاك.

كنتُ أستمتع أيَّ متعة حينما أركب الدراجة التي فيها جرس، إذ كنت أدقُّ على الجرس بسرعة وبصورة متواصلة، وكنتُ ألاحق مَن يمشي على الطريق ثم أدقُّ الجرس خلفه فجأة وبصورة متواصلة، ومن ثم أتجاوزه وأنا أرفع صدري ورأسي عالياً، وبعد أن أتجاوزه بعدة أمتار أستدير بالدراجة راجعاً من حيث أتيت، وأنا أمسك مقود الدراجة بيَدٍ واحدة، ثم أرفع يديَّ الاثنتين عن المقود وأترك مقود الدراجة كله للريح، فأقود الدراجة وأنا أصفِّق بيديَّ الاثنتين، وأحياناً كنتُ أغنّي بصوتٍ عالٍ مردّداً أغنية المطربة المشهورة **(سميرة توفيق)**:

يا خيّال الزرقا يا ولدْ

يا خيّال الزرقا يا ولدْ

خذني معاك ع الزرقا ... للبلدْ

خذني معك ع الزرقا ... للبلدْ

يا زين

يا ولدْ، يا ولدْ.

ولم تمضِ العطلة الصيفية إلا وقد تعلَّمَ أولاد **(فيق)** قيادة الدراجات الهوائية إلا قلَّةً قليلة جداً منهم، وذلك لقلَّة استئجارهم الدراجة أو لضعف فطري في تناسقهم العصبي العضلي أو لضعف بنيتهم الجسدية.

كان الشاب (ابن عمي) مالك الدراجات دمث الأخلاق، طيّب النفس، بشوشاً، وكان هادئاً جداً، ونادراً ما يغضب أو يُغضِب أحداً من الأولاد، وإنْ كَسَر أحدهم مقود الدراجة أو قَطَعَ السلسلة الحديدية الـمُسنَّنة (الجنزير) فيها، ولو حصل ذلك فيكون أول ما يفعله هو تهدئة رَوع الولد، ثم الاطمئنان على سلامته، وفي كثير من الأحيان كان يعطي الولد دراجة أخرى ويقول له: اركبها بالمجّان، وهذا يدلّ على كرمه ونُبْل أخلاقه، وكان ذلك يُكسبه السمعة الطيّبة بين الأولاد، فتنقل إلى أهلهم، فيصير حديث مجالسهم وسَمَرهم.

كان ابن عمي يُصلح الدراجة التي تضرَّرت بسرعة، وهو راضٍ منشرح الصدر، وكان الأولاد يفضّلُّون التجمّع أمام محل (ابن عمي) للدراجات على ذهابهم إلى ملاعب المدارس للعب كرة القدم، لأن ركوب الدراجة كان فيها متعة جديدة عليهم، وحين اقتراب نهاية العطلة الصيفيّة كان ابن عمي يقيم سباقاً لكلِّ أولاد البلدة الذين تعلَّموا قيادة الدراجة، فكان يُحضِر أربع درّجات ويختار أربعة من الأولاد للتسابق من محلّه نحو جهة الشمال أو الغرب، ومَن كان يعود منهم أوّلاً يقف جانباً، لأنه فائز، ثم يطلب من أربعة غيرهم التسابق، والواصل منهم أوّلاً يكون الفائز، وهكذا ... إلى أن ينتهي جميع الأولاد من السباق، ثمَّ يعيد الكَرَّة نفسها بين الفائزين، حتى يصل في النهاية إلى الفائزين بالمراكز الثلاثة الأولى؛ الأول والثاني والثالث، فيكون هؤلاء الثلاثة قد فازوا بجهدهم ومهارتهم وقوة أجسامهم دون مراوغة أو تلاعب أو انحياز، فقد أثبتوا جدارتهم أمام الملأ، وقد كان يشاهد السِّباق كثيرٌ من أهل البلدة، بما فيهم النساء، وبعض الجنود الذين كان يُصادف وجودهم في المكان الذي يبدأ منه السباق أو مرورهم به

ساعة انطلاقه، وكان (ابن عمي) يعلن عن الجائزة التي سيقدِّمها للفائزين؛ الأول والثاني والثالث، ألا وهي أنَّ هؤلاء الفائزين يحقُّ لهم ركوب أي دراجة من درّاجاته متى شاؤوا من دون مقابل مدّةَ ثلاثة أيام، وكانت هذه الأيام الثلاثة هي التي تسبق سفره إلى دمشق لمتابعة دراسته في دار المعلمين.

كان كثيرٌ من الأولاد يحضرون إلى محل ابن عمي لمساعدته في لملمة الأدوات التي تخصُّ الدراجات وحَمْلها إلى داره، كي لا تتلف أو تُسرَق، فتكون جاهزةً تماماً للعام القادم.

كانت عطلة الصيف بوجود ابن عمي ودرّاجاته صباحات وأمسيات رياضية، وهي تحمل ذكريات حلوة ليس فيها ذكرى واحدة مُرَّة أبداً.

كان الفائز الأول في سباق الدراجات الذي تحدَّثتُ عنه آنفاً هو أخي (أمين مقبل)، وكنت أنا (زكريا مقبل) الفائز الثاني، وكان (محمد مقبل) أبو حيدر الفائز الثالث، فقد كان أخي (أمين مقبل) أكثر رشاقة وقوة بدنية منّي، ولأنه أصغر مني سنّاً كان أخفَّ وزناً، مما سمح له بالتحرك بمرونة كبيرة بالدراجة، إضافة إلى مهارته الفائقة في قيادتها، لهذا كان ينال المركز الأول دائماً.

لم يكن عمل (ابن عمي) مقتصراً عل مجال تأجير الدراجات الهوائية وحسب، بل بعد أن أصبح لديه مبلغ لا بأس به من المال، ذَهَب إلى دمشق وأحضر من هناك فانوساً سحريّاً واستأجر محلًّا آخر قريباً من محل الدراجات، وكان يعرض فيه أفلاماً، بوساطة آلة تُرسِل ضوءاً إلى قطعة قماش كنّا نسمّيها الفانوس السحري، وكان الأولاد يشاهدون ما يعرضه لهم الفانوس السحري من بعد المغرب إلى العشاء، إذ كانوا يدخلون إلى

الغرفة ويجلسون على الأرض صامتين مبتسمين مترقِّبين بدء العرض على أحرَّ من الجمر، وبعد مدّة قصيرة بمقياس الزمن الحقيقي، طويلة جدّاً وكأنها دهر بمقياس زمن لهفتنا للعرض، يدخل **(ابن عمي)** مبتسماً كعادته ويقف أمامنا ويقول**:** "ها، هل أنتم جاهزون؟ فنصيح **-** نحن الأطفال **-** بصوت واحد مجيبين عن سؤاله**:** نعم، نعم"، وترى الأطفال يشدُّ كل واحد منهم مَن بجانبه من كتفه، أو يشدُّ الولد الذي يجلس أمامه من ظهره، وكان هذا التصرف معبِّراً عن فرح كل واحد منهم باقتراب بدء عرض الفيلم، ثم يُطفأ ضوء الغرفة ويبدأ عرض الفيلم فيسود صمتٌ مطبِق داخل غرفة العرض، وترى الأولاد وكأن على رؤوسهم الطير، ويبقون على هذه الحال صامتين وبلا حراك حتى ينتهي عرض الفيلم، وما إن يُشعل ضوء الغرفة التي يجلسون فيها حتى تبدأ الأصوات تتعالى ويتعالى الضحك في كلِّ أرجاء الغرفة، حتى يصل إلى الشارع، ثم يبدأ الأولاد بالمغادرة ذاهبين إلى بيوتهم فرحين مسرورين، وتراهم وهم في أثناء ذلك يتبادلون أطراف الحديث فيما بينهم حول ما شاهدوه في الفيلم الذي عُرض عليهم**.**

لقد كانت مثل هذه الأفلام شيئاً جديداً بالنسبة إلى الأولاد وبالنسبة إلى الكبار أيضاً، فهم لم يروا أو يشاهدوا شيئاً مثل هذا من قبل، فقد كان الأولاد وأهلهم يعرفون المذياع **(الراديو)** فحسب، ويعرفون التلفاز الذي كانوا يشاهدونه في محل **(أبي عجيب)** العَشِّيّ **-** كما ذكرت في قصة سابقة **-** الذي كان له محلّ في بلدتنا يبيع فيه الحلويات والحمّص المطحون الـ **(مسبّحة)** والفول والفلافل في النهار، وفي الليل يشغِّل التلفاز لديه في المحل بالأجرة لمن يريد أن يشاهد من الأولاد ما يُعرض فيه من برامج،

وكان يفعل ذلك طلباً للمنفعة المادية وزيادة الربح، وكان كثير من سكان البلدة أو القرى المجاورة لا يعرفون لا المذياع (الراديو) ولا التلفاز ولم يروا أيّاً منهما أبداً بل يسمعون عنهما سمعاً فحسب.

وبهذا كان أولاد (فيق) يقضون أوقاتهم في فرح دائم، إذ إن بإمكانهم ركوب الدراجات في النهار إلى قبيل المغرب، وبعد غروب الشمس بإمكانهم مشاهدة الأفلام بوساطة الفانوس السحري، وكان (ابن عمي) يعرض تلك الأفلام للأولاد مجّاناً، من دون أي مقابل مالي أو مادّي، وهذه خِصلةٌ أخرى من خِصال (ابن عمي) النبيلة والكريمة.

كان في بلدتنا (فيق) مولِّدة كهربائية ضخمة جداً تعمل بوساطة الـ (الفيول)، وكانت تُشغَّل مساءً عند المغرب فحسب فتنير شوارع البلدة كلها، إضافة إلى بعض البيوت التي اشتركت في الخدمة الكهربائية، ولا أذكر أنَّ هذه المولِّدة قد تعطَّلت في يوم من الأيام، إذ كانت تعمل في المساء وتتوقف عن العمل منذ الصباح الباكر، لهذا كانت الطاقة التي يحتاج إليها الفانوس السحري متوافرة في بلدتنا، ولكن هذا الفانوس كان يُشغَّل يدويّاً، فلا بد أن يدوِّر أحدهم البَكَرة التي تحمل شريط الفيلم، وقد كان الفانوس السحري يعرض الصورة فحسب من دون صوت، وبهذا كان على الأولاد الذين يشاهدون الفيلم أن يجتهدوا في تفسير أحداث الفيلم بناءً على تحرّكات الصورة الصامتة وما يصدر عن الممثلين الظاهرين فيها من تصرفات، وكان الأولاد يفعلون ذلك بالفطرة، فيقيسون ما يشاهدونه على ما اعتادوه من مشاهدة أفلام الرسوم المتحركة (توم وجيري)، ولذلك فإنك تراهم يعبسون ثم تنفرج أساريرهم ثم يتشنَّجون ثم يضحكون، وهذا دليل

على أنهم يعرفون ما يحدث في الصورة التي تُعرَض أمامهم، على الرغم من أنها صورة صامتة، ومثل هذا الأمر يحرِّك عقول الأطفال ويشحذها، مما ينمّي مداركهم العقلية ويصقلها.

لقد علِق في ذاكرتي من تلك الأفلام التي شاهدتُها بوساطة الفانوس السحري فيلم (أبي فوق الشجرة) ذائع الصّيت، وهو من بطولة (عبد الحليم حافظ)، وحينما احتلَّ الصهاينة الأشرار جولاننا الحبيب وتركنا ديارنا مكرَهين فوصلنا في نهاية المطاف إلى مدينة دمشق الفيحاء وتمَّ لنا الاستقرار في حيّ من أحيائها، وكنتُ حينها في المرحلة الإعدادية، وما إن رأيت دعاية ذاك الفيلم (أبي فوق الشجرة) في واجهة إحدى صالات العرض السينمائية حتى قطعت تذكرة مباشرةً ودخلت صالة العرض وشاهدته بصوت وصورة في هذه المرّة، وكنت طوال مدة عرض الفيلم أتنهَّد والدمعة في عيني، لأنني كنت أتذكر أمسيات لنا شاهدت فيها هذا الفيلم في بلدتي الحبيبة (فيق) التي احتلَّتها العصابات الصهيونية وطردتنا منها دون وجه حقّ مخالفةً بذلك جميع القوانين الدولية ومواثيقها، مما مَنَعَنا من العودة إليها حتى يومنا هذا.

قبل بدء العام الدراسي بيومين أو ثلاثة كان (ابن عمي) يسافر عائداً إلى دمشق لمتابعة دراسته في دار المعلمين؛ فيُغلَق محل الدراجات الهوائية ومحل الفانوس السحريّ، وكنا نحن الأولاد الصغار ننتظر عودته منذ أول يوم يُغلَق فيه المحلّان، إلى أن تأتي العطلة الصيفية القادمة في نهاية العام الدراسي، ولكن في عام ١٩٦٧م، وفي حين ما نزال في انتظار عودة ابن بلدتنا البارّ (ابن عمي)، وقعت المأساة ولم يعد (ابن عمي) إلينا، إذ بدأت

الحرب في الخامس من حزيران من ذاك العام، واحتلَّ الصهاينة الأشرار بلدتنا وجولاننا كلَّه وطُردنا منه حاملين معنا ذكرياتنا وحبَّنا الصادق الكبير الممزوج بالغصَّة والألم، وأما أنا الولد الصغير فقد كان لي أقارب وأصدقاء كنتُ أراهم كل يوم أكثر من مرَّة، ولم أعد أراهم إلا في المناسبات، بل إنَّ منهم مَن لم أره ولا مرة حتى الآن، منذ احتلال الصهاينة الأشرار عديمي الضمير والأخلاق والإنسانية لجولاننا الحبيب، لكني أقول لكلّ الأشرار في العالم، ولا سيما لهؤلاء الصهاينة:

"إنَّ للباطل جولة، ولا بدَّ للحق أن يعود إلى أصحابه، ولن يضيع حَقٌّ وراءه مُطالِب".

(المُقَضِّمُ والمُبَيِّضُ)

إنَّ بلدنا سورية الحبيبة أرض الخيرات والبركات ثرواتها كثيرة ومتنوعة ووفيرة، وشعبها نشيط ومبدع، وأرضها خصبة وسماؤها مدرارة بالحياة، وهي أيضاً أرض الحضارة الأولى، وفيها وُلدت الأبجدية الأولى.

وإنَّ الشعب السوري كان ومايزال لديه القدرة على الابتكار والإبداع وجعل كلِّ شيء يدور في مصلحته ولخدمة أهدافه، وتحويله إلى صمّام أمان لمعيشته في كل الظروف والأحوال، إذ كان شعبنا يستثمر إنتاجه الزراعي والصناعي أفضل استثمار، فلا يهدر منه شيئاً على الرغم من سيطرة المستعمرين وحقد الحاقدين وجشع المستغلِّين، فقد تعلَّم أن يفعل كل شيء بيده فلا يترك لأحد سبيلاً يستطيع من خلاله استغلاله أو هضمه حقَّه في إنتاجه وأمور معيشته.

كان أهل الريف في هذا الوطن الغالي أداةً منتجة ومبدعة في آنٍ معاً، وكذلك كان أهل الجولان وجلُّهم من أهل الريف، فإنَّكَ لتجد الفلاح من أهل الجولان، وهو أمِّيٌّ في أغلب الأحيان، نشيطاً غير كسول، فتراه يعمل ويخطط مثل مهندس زراعيّ بالفطرة والوراثة، وإنَّكَ لترى راعي الأغنام أيضاً يعمل عملَ الحارس والطبيب البيطري، فيعرف كيف يتعامل مع أغنامه محافظاً على صحتها وسلامتها، فقد كان أهل الجولان ينتجون من أغنامهم وأرضهم إنتاجاً وفيراً، وأكثر زراعات أهل جولاننا الحبيب ومنه

بلدتي (فيق) هي زراعة أشجار الزيتون والحبوب من مثل القمح والشعير والعدس والسمسم والحمص وغيرها من الحبوب التي كان يُستثمر كلُّ نوع منها أفضل استثمار، ففي بلدتي (فيق) استثمر الفلاح محصوله من الزيتون فعصر منه الزيت وصنع من الزيت الصابون الذي لا مثيل له في هذه الأيام أبداً، كما استفاد من حطب أشجار الزيتون وحبّاته بعد أن تُعصر، إذ جعلها وقوداً يطهو عليه طعامه ويغسل ملابسه ويسخِّن عليه الماء للاستحمام، وكان يصنع من السمسم الزيت النقي الممتاز الذي له استعمالات كثيرة، منها استعمالات طبيّة، كما أنه صنع من حبات الحمص (القضامة) بأنواعها، وهكذا كان يصنع من كلِّ ما ينتجه شيئاً مفيداً.

كان يأتي إلى بلدتي (فيق) رجلٌ في كل عام مرة في الصيف، بعد انتهاء الفلاح من عمله في البيدر، إذ يكون الفلاح حينها قد انتهى من دراسة القمح والشعير والعدس والذّرة البيضاء والسمسم والحمص، فخزَّن ما خزَّن من إنتاجه للشتاء، وباع ما باع منه، وترك ما يحتاج إليه لبذار العام القادم، كما أنه كان يترك قليلاً من محصول الحمص لصنع (القضامة)، وكان هذا الرجل يصنع من الحمص (القضامة) المالحة، وحينما يكون في حارتنا كان ينزل ضيفاً على جدي (موسى المقبل) إلى أن ينتهي من صنع (القضامة) لنا ولأقاربنا ولمن يرغب في ذلك من أهل حارتنا، وكان هذا الرجل يُدعى (أبو حسين)، وكنت لا أعرف اسمه الحقيقي، ولا من أي بلدة أو قرية يأتي إلينا، إذ كنتُ أفاجأ به في دارنا، فإذا به يصنع (القضامة) بأدوات بسيطة أهمها بعض الطناجر والغرابيل، وكان أهمّ شيء لديه لصنع (القضامة) المالحة هو الحمص والملح الصخري وبعض الماء الذي يُسخَّن على الحطب، وكان الحطب متوافراً بكثرة في دارنا لكثرة أشجار الزيتون لدينا.

كان الناس يأتون بالحمّص وبشيء من الملح الصخري فحسب، ويطلبون من (أبو حسين) صنع (القضامة) المالحة لهم، وقد كان بعض الناس من سكّان حارتنا يأتي بكيسَين أو ثلاثة من الحمص ليحوِّلها (أبو حسين) إلى (قضامة) مالحة، وكان الناس يسمّون مَن يعمل في تحويل الحمص إلى (قضامة) بـ (الـمُقَضِّم)، وكانوا يدفعون أجرة الـمُقَضِّم إما نقوداً وإما كمية من الحمّص، فلا مشكلة لدى (أبو حسين) في كيفية دفع الأجرة.

كان الـمُقَضِّم (أبو حسين) يعطي أصحاب الحمص موعداً محدَّداً كي يأتوا ويأخذوا ما أحضروه من حمّص، وقد تحوَّل إلى قضامة لذيذة طيّبة الطعم والمذاق، وقد كان بعضٌ من سكّان حارتنا ليس لديهم حمّص، لأنهم لا يملكون أرضاً ليزرعوها بالحمّص، ولا يملكون المال لشراء الحمّص أو القضامة الجاهزة، لكن كان لا بد لهم أنْ ينالوا نصيبهم من القضامة، بوساطة ما يهديه إليهم جيرانهم منها، فيصلهم من جارهم فلان كمية من القضامة ومن جارهم فلان كمية أخرى، وهكذا إلى أن تجد لدى أحدهم أكثر بكثير مما لدى الذين صنعوا القضامة لأهل بيتهم، وكان أبو حسين نفسه أحياناً يصنع قضامة من الحمّص الذي يحصل عليه بوصفه أجرةً من الناس ويقدِّمه إلى إحدى العائلات الفقيرة.

كان الناس يستهلكون القضامة في سهراتهم في فصل الشتاء، وهم يتحلَّقون حول مدفأة الحطب ويتبادلون أطراف الحديث ويتسامرون، إذ تأتي النساء بوعاء من النحاس أو الألمنيوم يسمّى (زبدية) وتضع أمام كلِّ واحد من الحاضرين وعاءً مملوءاً بالقضامة، سواء كان صغيراً أم كبيراً أم رجلاً أم امرأة، فكلُّهم سواءٌ في نيل حصَّتهم من القضامة بلا تمييز أو تفريق

بين صغير أو كبير، ويبقى الناس على هذه الحال طوال فصل الشتاء، يقرضون القضامة اللذيذة والمغذّية جدّاً، وقد كان ينمو حول بلدتنا نبات يسمّى (السِّدْر) البرّي، وهو نبات يشبه شجر العنّاب، ولكنه قصيرٌ لا يصل ارتفاعه إلى المتر، وله كثيرٌ من الفروع والأغصان، ويثمر ثمرةً تسمّى عندنا (الدُّوم)، وهي ثمرة خضراء اللون، بلون حبات الزيتون الخضراء، وحينما ينضج يتحوّل لونه إلى اللون البنّيّ القريب من السّواد، وهو ينضج في آخر الصيف، وحبَّته بحجم حبَّة الحمّص الكبيرة، فحينما ينضج (الدُّوم) يصير طعمه مثل طعم (الكاكاو) تماماً، بل ألذّ وأطيب، وشجرة (الدّوم) شجرة بريّة تنمو وحدها في السهول المحيطة بالبلدة، وقد كانت الغزلان تختبئ فيها ليلاً وتَقِيلُ في ظلِّها صيفاً اتِّقاءً لحرارة الشمس، وحينما كنّا نحصد القمح ونصل قرب شجرة السِّدر كانت الغزلان تفرُّ هاربةً منّا متَّجهةً إلى الأودية، وقد كانت الغزلان تحبُّ شجرة ثمر الدُّوم كثيراً، بل أكثر من محبَّة الناس له.

كانت النساء تذهب إلى الحقول وتعبِّئ ثمر الدّوم بالمجراف أو (الرَّفش) بعد أن يكون قد تساقط من على أشجاره إلى الأرض، وهو خفيف الوزن، إذ إنك تستطيع حمل كيس بحجم كيس الطحين بإصبع واحد.

كان بعض الناس يقدِّمون القضامة أو الدُّوم لأهل بيتهم أو للزوّار، فيأكلون ويستمتعون بالمالح (القضامة) وبالحلو (الدُّوم)، وبهذا لا يضطر الواحد منهم إلى الذهاب إلى السوق لشراء الموالح كما هي عادة الناس في أيامنا هذه، وقد كانت عادة تقديم شيءٍ مما لديك للآخرين المحتاجين والفقراء عادةً وعُرْفاً وتقليداً، فكان مَن ليس لديه زيتٌ أو زيتون يأتيه الزيت والزيتون إلى بيته، ومَن ليس لديه لبن أو سمن أو زبدة أو بيض،

يأتيه من الآخرين، وحتى اللبن المجفَّف (الجميد) أو المخفوق (العَيران) و(الشمندور) تصل كلّها إلى المحتاج، فيصبح في كثير من الأحيان لدى هؤلاء الذين لا يملكون أكثر مما لدى الذين يملكون، فكان الفقير لا يشعر ولا يحسُّ بفقره، وكان المحتاج لا يشعر بحاجته، فكلّ واحد لديه مثل الذي لدى الآخَر، فالخير وفير والأحوال بخير، والجميع يعيشون في سعادة وهناء وراحة بال، وتلك أيام مضت عشناها في جولاننا الحبيب ولا سيما في بلدتي (فيق)، فقد كنّا في بلدتنا لا نشتري من مستلزمات الحياة المعيشية إلا القليل القليل، فمعظم ما أنت محتاجٌ إليه موجودٌ لديك في بيتك وفي متناول يدك.

كان من الذين يأتون إلى بلدتنا - إضافة إلى المطهّر والمقضّم - الـمُبَيِّض؛ وهو الشخص الذي يُلَمِّع ويُبَيّض الأواني النحاسية من مثل الملاعق والصحون والصواني والطناجر والقُدُور مختلفة الاستعمالات، إذ إن منها ما كان يُستعمل للطبخ ومنها ما كان يُستعمل للعجين، وكذلك كان المبيّض يبيِّض المقلاة والأواني التي كان الناس يضعون فيها القضامة أو (الدّوم)، وهي مثل الزبادي والمناسف التي يقدَّم فيها للضيوف البرغل المطبوخ باللبن وعليه كثير من اللحم.

كانت كل تلك الأشياء مصنوعة من النحاس، حتى الكؤوس والأوعية التي كان يشرب بوساطتها الناس الماء من الخابية أو الجَرَّة كانت تُصنع من النحاس أيضاً، وقد كان كلّ بيت يحتوي كثيراً من الأدوات النحاسية، وهي تحتاج في كلّ عام إلى تبييض، فكان لا بدَّ من حضور المبيض (أبو سالم) إلى بلدتنا، وهي مدينة صغيرة وأهلها ميسورو الحال ولديهم القدرة على دفع تكاليف تبييض تلك الأشياء أو الأدوات.

كان الناس من أهل القرى المجاورة الذين يريدون أن يصنعوا القضامة أو الذين يحتاجون إلى تبييض أوانيهم النحاسية مضطرين إلى المجيء إلى بلدة (فيق) الغالية، وإلى دار (موسى المقبل) حصراً، لأنهم يعلمون أنَّ كلًّا من المبيّض و المقضّم موجودان في دارنا؛ دار جدي، والسبب في لجوء كل أصحاب المهن إلى دارنا أنها دارٌ واسعة لها رواقٌ مسقوف من بداية مدخلها بطول ستة أمتار، وصحن الدار فيها واسع أيضاً، مما يسمح لكلٍّ من المبيّض والمقضّم بأن يكونا في معزل عن أهل الدار وعن الناس، كما تمنحهما تلك المساحة الواسعة القدرة على إيجاد أمكنة مناسبة لأدواتهما ولما يأتي به الناس من أوانٍ وأشياء، إضافة إلى توافر كثير من الحطب في دار (موسى المقبل) الذي يقدَّم لهما بالمجَّان فيستطيعان أن يأخذا منه ما يكفي حاجتهما دون حسيب أو رقيب، بل كان باستطاعة كلّ منهما أن يُخرج كل يوم كمية الحطب التي يحتاج إليها لإنهاء عمله بسهولة ويُسر، إضافة إلى أن الطعام متوافر لهما مجّاناً أيضاً، طالما أنهما يقضون للناس حاجاتهم.

لقد كان المبيّض (أبو سالم) يتقن القراءة والكتابة، فكان يكتب على كل كيس اسم صاحبه أو صاحبته، كما كان يكتب عدد القطع الموجودة في داخل كلّ كيس، وحينما يبدأ عمله يأتي بالكيس كاملاً، ثمّ يُخرج القطع الموجودة في داخله، ويتأكد من عددها، ومن ثم يبدأ بتبييضها فيبقى مواظباً على عمله إلى أن يُنهي كل القطع الموجودة في داخل كلّ كيس، ثم يعيدها إلى داخله كاملةً دون نقصان، ويضعه في مكانه المخصَّص له، إلى أن يأتي أصحابه ليأخذوه، وكان المبيّض (أبو سالم) لا يفضّل شخصاً على آخر وإن كان ذلك الشخص هو المختار أو رئيس المخفر أو رئيس البلدية، فهو يعمل بالترتيب وكلٌّ حسب دوره، وكان (أبو سالم) يتقن عمله تمام الإتقان، إذ إنه

يعرف خفايا صنعة التبييض، ويُقال إنه تعلَّم الصَّنْعة صغيراً في سوق النحّاسين في دمشق، ولـمّا كبر وتزوَّج فضَّل أن يعمل لحسابه الخاص، وقد كنتُ أراه يقرأ القرآن بترتيل وصوت شجيٍّ حنون، وكان يناديني أحياناً إذا ما هممتُ بالخروج من الدار، فيقول: اجلس يا ولد، ثم يقول لي: في أيِّ صفٍّ أنت؟ فأقول له: في الصف الرابع، وبعدئذ ينهال عليَّ بأسئلة كثيرة؛ في جدول الضرب وفي النشيد وفي آيات القرآن الكريم التي كان يُطلب منّا حفظها في مادة التربية الإسلامية، وكنتُ أجيب عن أغلب أسئلته فكان يُسَرُّ مني ويقول: بارك الله فيك يا بنيّ ويصرُّ على إعطائي (نصف فرنك) أي قرشين ونصفاً، ويوصيني بعدم ترك الدراسة مهما كانت الأسباب، كي لا يحصل معي مثلما يحصل مع كثير من أولاد الريف من الفلاحين، ثم يقول لي: اذهب حيث تشاء، ولكن لا تصاحب الأشرار لأنَّ في صحبتهم خراباً للديار ومفسدةً للأخلاق ومصيراً بائساً.

كان (أبو سالم) يقبل أي شيء مقابل عمله من كلّ الناس؛ زيتاً أو سمناً أو زبدةً أو لبناً مجمَّداً (جميداً) أو بيضاً أو عسلاً بدلاً من النقود، وكان كلّ يوم أو يومين إذا وصلته أجرة من هذا النوع يحملها إلى محلّات بيع الأغذية في البلدة فيبيعها ويضع النقود في جيبه، وكان حينما يسهر في مضافة جدي يضع نقوده أمانةً لديه إلى أن تحين ساعة مغادرته، خوفاً من أن تسقط منه في أثناء عمله، وكان يسامح الفقراء في أجرته ولا يأخذ منهم سوى ثمن المواد التي استعملها في تبييض أوانيهم، ولم أره يوماً في خِلاف مع أحد من الناس؛ إذ لم يكن يضيّع لأيٍّ منهم وعاءً ولم يكن يبدِّله بما يشبهه من أواني الآخرين، وقد كان رجلاً جادّاً مرتَّباً واعياً لما يفعله، والمهم أنه لم يكن ينسى شيئاً مما يبيضه في دار جدي، ولصفاته تلك كان جدي يحترمه احتراماً

شديداً، حتى إنه كان يحمل إليه الدَّلَّة والفنجان إلى الرواق في مكان عمله ليصُبَّ له فنجان القهوة الـمُرَّة، وكانت دِلال القهوة تُصنع من النحاس أيضاً، ولهذا كان **(أبو سالم)** يقول لجدي: لماذا لا تبيِّضها مع الأواني الأخرى؟! فيقول جدي: دعها حتى تنتهي من تبييض كل ما وصلك من أواني الناس وأوعيتهم، فيردُّ **(أبو سالم)**: حسناً، إذن لن أغادر قبل أن أبيِّض كل دِلال القهوة الخاصة بك.

كان **(أبو سالم)** يؤدي عمله الذي يتقنه تمام الإتقان، وهو مطمئنٌ على نفسه وماله وأدواته وأدوات الآخرين التي صارت في عهدته إلى أن يعيدها إلى أصحابها مبَيَّضة تبييضاً مُتقناً، ويعود اطمئنانه هذا إلى أنه يعمل في رعاية جدي **(موسى المقبل)** وحمايته، وإلى أنه يقيم في داره، ولهذا وجب على كل من يأتي إليه أن يحترمه احتراماً لأهل الدار التي يعمل فيها واحتراماً لصاحبها، دون أن ننفي أن **(أبو سالم)** كان بحد ذاته محترماً دائماً بين الناس.

كنت - أنا الولد الصغير - أرى الناس أصحاب الحاجات يغادرون دار جدي راضين مسرورين من جميع النواحي، ولا سيّما من ناحية عمل **(أبو سالم)** ومن ناحية ما يتقاضاه من أجرة، إذ لا مشكلة في ذلك أبداً، فالجميع راضون والجميع مسرورون والجميع يحترم بعضهم بعضاً، وبمثل هذه الأوضاع كانت تدوم المحبة ويعمّ الرضا بين الناس، وكان التعاون سرَّ محبتهم ورضاهم، وأما الآن فقد زال كلّ هذا أو أغلبه، وطُرِد أهل **(فيق)** وأهل الجولان من بيوتهم نتيجة احتلال عصابات الصهاينة الشريرة لأرضهم ومنازلهم وبيوتهم ونهب محتوياتها جميعها، ومن ضمنها تلك الأواني النحاسية التي كان **(أبو سالم)** يُجهد نفسه في تبييضها، والتي كان

الأهالي يكلِّفون أنفسهم أجرة تبييضها، أجل لقد نهب الصهاينة الأشرار كلَّ محتويات البيوت في جولاننا الحبيب، ولكن لا بدَّ لهم من أن يخرجوا منه، وحينئذ سأطالبهم بإعادة كل ما أخذوه، فحتى ملعقة النحاس خاصتي أريدهم أن يعيدوها لي على الرغم من أنوفهم، وأقول لأولئك الأشرار: دوام الحال من الـمُحال، ولسوف يُخرج الأعزُّ الأَذلَّ من جولاننا الغالي ومنه بلدتي (فيق) الحبيبة.

فهرس

الصفحة

التعريف بمدينة فيق ٥

أبي والطَّحْنة ١١

درب الحلّابات ٢٩

أيام الحصاد والبيادر ٣٥

تهجير قَسْريّ ٥٣

قِطاف الزيتون ٦٧

(العيون والينابيع والسيول في أرض فيق) ٧٩

تجديد الطّين ٨٧

جمال الطبيعة في بلدة فيق ٩٣

أيام الفرح ولياليه ١٠١

أيام الانتخابات البرلمانية ١١٥

الصفحة

الأسرى ١١٩
العَشِّيّ ١٢٧
الـمُطَهِّر ١٣٣
الصيّاد ١٤١
شمال غرب ١٥٥
الـمُقَضِّم والـمُبيِّض ١٦٩
الفهرس ١٧٩

زكريا مقبل

- من مواليد محافظة القنيطرة - مدينة فيق في الجولان المحتلّ، عام ١٩٥٥م.
- يحمل إجازة جامعية في اللغة العربية من جامعة دمشق.

م٢٠٢٢